الفصل الرابع والعشرون

غـروب الشـمس

١ ـ مدام دى مينتنون

بعد وفاة « مارى تريز » (٣٠ يوليه ١٨٦٣) كانت الملكـة غير المتوجه لفرنسا « الأرملة سكارون » المركيزة دى مينتنون ، مربية بناء الملك غير الشرعيين ، وسرعان ما أصبحت (يناير ١٦٨٤ ؟) زوجته غير المتكافئة والتى لا ترث عرشه ، وكانت منذ ذلك التاريخ ذات أكبر نفوذ شخصي طيلة حكمه ٠

ومن العسير اليوم أن نعرف حقيقة خلقها ، ولا يزال المؤرخـون يختلفون عليه ٠ وكان لها أعداء كثيرون كرهوا صعودها وقوتها ٠ وكتب بعضهم التاريخ وأسلمها الينا وغدا أنانيا ماكرا مدبرا للمكائد ٠ ومهما يكن من أمر ، فانها حين كان من الميسور لها أن تحل محل مدام مونتسبان « خليلة للملك » ـ بكل ما يأتى به هذا من نفوذ وسيطرة ـ أبت ، وبدلا من ذلك ، حرضت الملك على العـودة الى مخـــدع الملكة (أغسطس ١٦٨٠) ٠ وكانت الملكة آنذاك فى الثانية والأربعين من العمر ، أصغر من دى منتينون بثلاثة أعوام ، ولم يكن ثمة ما يبرر توقع موتها المبكر ٠ وظاهر أن المركيزة ، فى هذه الآونة ، آثرت الفضيلة على الســيطرة والنفوذ ، وعندما اخططفت يد المنون الملكة ظلت المربية على رفضها أن تكون خليلة ، وسعت وراء أهداف عليا ، مغامرة بوظيفتها الحالية ٠ واذا كانت فضيلتها طموحا فانها لم تتلطخ به أكثر ما تلطخ به تواضع عانس متعقلة ليس لها الا مفاتنها تساوم بها من أجل حياتها ، وتظن أن مضاجعة ليلة أقل أمنا من خاتم العرس ٠ ولما تزوج لويس من مينتنون كان عمرها ثمانية وأربعين عاما ٠ ورسمها مينارد عقيلة لطيفة جاوزت مرحلة الاغراء أو الفتنة الجسدية ، وكانت فى أحسن الأحوال تقيـــة مخلصة فى تقواها ، وفى أسوأ الأحوال قامرت مقامرة جريئة وكتب لها الفــوز ٠

وخصص لها آنذاك مسكنا قريبا من مسكن الملك ، فعاشـــت فى قصر فرساى فى بساطة برجوازية تقريبا . « كانت حياة البلاط تضايقها، ولم تجد لذة فى التباهى والتفاخر (١) » . ولم تجمع ثروة ، وحتى فى قمة سعود نجمها لم تكن تملك الا القليل الى جانب قصر مينتنون الذى تركته غير مؤثث ولم يستخدم . ويقال ان لويس ، فى أعوامهـا الأخيرة ، قال لها يوما « ولكنك يا سيدتى لا تملكين شيئا ، واذا ما مت فستكونين فقيرة خاوية الوفاض ، خبرينى ماذا يمكن أن أفعـــل من أجلك ؟ » . فطلبت بعض الامتيازات والرعاية المتواضعة لذوى قرباها ، ومبالغ كبيرة من المال لمشروعها الأثير لديها : الكلية التى أسست ١٦٨٦ فى سان سير لبنات الأسرات الكريمة اللاتى أخنى عليها الدهر . ولم يكن خيلاؤها بل خيلاء الملك هو الذى جند الرجال وخصص الأموال لقناة الماء التى لم يتم بناؤها ، والتى حملت اسمها .

وكانت دى مينتنون ، من نواح كثيرة ، زوجة صـــالحة . وكان شغلها الشاغل فى يوم حافل أن تقف حائلا بين الملك وبين العالم ، وأن تحافظ على السلام والهدوء ، وسط أطماع أفراد البلاط ودسائسهم ، وتلاطف سربا من الطامعين فى المناصب ، وتعمل خالة عطوفة لحفدة زوجها ، وتفى بمتطلباته بوصفه رجلا ، وتواسيه فى اخفاقه وهزائمه . وترفه « عن الرجل الذى من أصعب الصعب الترفيـــه عنه فى مملكة بأسرها (٣) » ، وتخلق جوا من الهدوء المنزلى ، فى حياة كان لزاما فى كل ساعة تقريبا أن تتخذ فيها قرارات يتأثر بها مليون حياة . وفى أوراقها الخاصة التى وجدت بعد وفاتها ، عثر على هذا الدعاء ، وظاهر أنه كتب فور زواجها :

يا الهى ، لقد بوأتنى هذا المكان الذى أنا فيه الآن ، وانى لأترك نفسي رهـن تدبيرك وعنايتك دون قيـــد أو شرط ، امنحنى النعمة الالهية ، حتى أستطيع ، كمسيحية ، أن أحتمل الآلام ، وأقدس المسرة ، والتمس فى كل شيء مجدك ، و .. .. أعاون على خلاص الملك ، وحل بينى وبين الاستسلام لتهيجات ذهـــن قلـق . ولتكن مشـيئتك يا الهى ، مشيئتى ، فان السعادة كل السعادة ، فى هذه الدنيا وفى الآخرة هى فى الخضوع لمشيئتك أنت دون تحفظ.

اغمر نفسي بهذه الحكمة ، وبسائر الهبات الروحيـــة اللازمة لتلك المنزلة العالية التى وضعتنى فيها . ولتجعلها مثمـــرة تلك القدرات التى طاب لك أن تمنحنى اياها . يا الهى ، أنت يا من تمسك بين يديك قلوب الملوك ، افتح قلب الملك حتى أصب فيه من الخير ما تشاء أنت سبحانك . أوزعنى أن أسعده وأسره وأواسيه وأشجعه ، بل حتى ان أزعجه واجلب عليه الحزن اذا اقتضي الأمر تمجيدا لك . هيىء لى ألا أخفى عنه شيئا يجدر أن يعلمه منى ، مما لا يجد الآخـــرون فى أنفسهم الشجاعة ليبلغوه اياه . هيىء لى أن أنقـــذ نفسي وأنقذه معى ، وأن احبه فيك ومن أجلك يا الهى . وهيىء له أن يحبنى بنفس الطريقة . هب لنا أن نسير معا فى ملكوتك دون لوم أو خزى حتى يوم قدومك (٤) .

وهذا دعاء جميل قدر جمال أية رسالة من ألواز الى أبيـلارد ، ونأمل أن يكون أصح وأصدق . ومثل هذ الدعاء يمكن ان يمنح القوة ، بصرف النظر عن أية استجابة خارجية ، وربما كانت ثمة ارادة خفية للسيطرة والسلطة فى ثنايا الرغبة فى اصلاح الآخرين وهدايتهم ، ولكن السنوات الباقية من عمر مينتنون أثبتت أصدق تقواها وضيق أفق هذه التقوى معا . يقول سان سيمون « لقد وجدت ملكا يعتقد فى نفسه أنه رسول أو حوارى لأنه ظل طيلة حياته يضطهد الجانسينة .. .. وهـذا أوحى اليها بنوع الحب الذى تبذر به الحقل لتجنى أعظم حصاد (٥) ». (عرفت من أين تؤكل الكتف) .

هو شجعت مينتنون على اضطهاد الهيجونوت ؟ هـــكذا يظن سان سيمون (٦) ، ولكن التحقيقات اللاحقة تميل الى تبرئتها من هذه الوحشية التى كان بطلها عدوها اللدود لوفوا . ورأى فيها لورد آكتون، وهو مؤرخ كاثوليكى ، نادرا ما كان مناصرا للكاثوليكية :

أعظـــم امرأة ثقـــافة وتفكـــيرا وادراكا . وكانت بروتستانتية من قبل . واحتفظت لأمد طويل بحماسة المرتدة وغيرتها . وكانت تعارض الجانسنية معارضة شديدة ، وكانت تحظى بثقة أفاضل رجال الدين الى حـد كبير ، وســاد

الاعتقاد بأنها شجعت الاضطهاد وحرضت الملك على الغاء مرسوم ثانت • وأبرز ترسائلها شواهد على ذلك • ولكن رسائلها كانت قد حرفت بواسطة محرر كان مزيفا مشوها (٧) ●

ان مينتنون ـ مثل فنيلون ، ومدام دى سفينى ومعظم الكاثوليك فى ذاك العصر • أقرت الغاء مرسوم ثانت ، ولكنها استخدمت نفوذها بنجاح غالبا ، كما يروى البروتستانتى ميشيليه ـ فى وقف قساوة الاضطهاد أو الحد منها (٨) •

وحتى لا تطغى النزعة الرومانتيكية على اضفاء المثالية على المرأة ، فتلون الصورة بألوان وردية زاهية ، فلننظر الى المركيزة من خلال آراء أخرى فيها تحامل عليها • ان كبرياء سان سيمون النابعة من لقب الدوق والدوقية ، لم تكن لتغفر صعود البورجوازية الوضيعة الى مرتبة سيدة فرنسا :

ان العوز والفقر اللذين عاشت فى براثنهما لفترة طويلة قد ضيقا من أفق تفكيرها ، وهبطا الى الحضيض بقلبها وعوطفها • ان مشاعرها وأفكارها كانت محدودة ، الى درجة أنها كانت دائما فى الحقيقة أقل حتى من مدام سكارون ••• وليس ثمة شيء أشد اثارة للنفور والاشمئزاز من منبت وضيع يتبوأ مكانا متألقا الى هذا الحد (٩) •

ولكن الدوق نفسه وجد بعض المزايا والفضائل وسط أخطائها وعيوبها :

● انظر جاك بولنجيه « القرن السابع عشر » نيويورك ١٩١٠ ـ ص ٢٤٣ من الواضح يكن لها ية علاقة بالغاء مرسوم نانت » ، ودائرة المعارف البريطانية بالمجلد ١٤ ـ ٦٩٣ « لقد نسب اليها ظلما وعدوانا الغاء مرسوم نانت وحملات الاضطهاد والتعذيب الوحشية » وخلص فولتير منذ أمد بعيد الى مثل هذا الرأى ، « أعمال فولتير » ـ نيويورك ١٩٢٧ ـ الفصل ٢ أ ـ ص ٢٦٠ •

كانت مدام دى مينتنون امراة على جانب كبير من الذكاء الذى احتملته الرفقة الطيبة التى عاشت بين ظهرانيها أولا ، ولكن تألقت فيها سريعا ، وصقلتها كثيرا وزودتها بزينة المعرفة الدنيوية ، التى جعلتها الكياسة البالغة من أكثر الوان المعرفة استساغة وقبولا • وجعلتها المناصب المختلفة التى شغلتها مداهنة متملقة راضية تسعى دائما الى ارضاء الناس • ان حاجتها الى الدسائس ، وأولئك الذين التقت بهم من كل الأنماط ، واختلطت بهم من أجل شخصها ومن أجل الآخرين ، أضفوا عليها ذوقهم وعاداتهم • ان كياسة لا تضاهى وسلوكا هينا لينا رضيا ، ولكنه مدروس ، يدعو الى الاحترام ، وكانه نتيجة لطول خمول ذكرها قد أصبح أمرا طبيعيا بالنسبة لها ، كل أولئك ساعد على تنمية مواهبها بشكل عجيب ، الى جانب لغة مهذبة محكمة حسنة للتعبير ، فصيحة موجزة بشكل طبيعى • أما أسعد أيامها ، حيث كانت تكبر الملك بثلاث أو أربع سنوات ، فكانت فترة التودد ومطارحة الغرام والمغازلة الرقيقة •• •• وبعدها أحاطت نفسها بهالة من الاهمية وجلال الشان • وتقلص ظل هذه تدريجيا لتحل محلها هالة من التقوى أحاطت بها نفسها بطريقة تدعو الى الاعجاب • ولم تكن نزاعة بطبيعتها الى الخداع والغدر ، ولكن الحاجة الجاتها الى أن تكون كذلك • وجعلها طيشها الطبيعى تبدو مخادعة ضعف ما هى عليه فى حقيقة الامر (١٠) •

وأثار بعد الشقة فى نفس ماكولى شيئا من الشفقة ، فنظر الى مدام دى مينتنون نظرة أكثر اتساما بالشهامة والاحترام ، وربما احس بأنه يمكن أن يغتفر الكثير لسيدة كانت « تمتاز بالفصاحة والايجاز معا :

> انها حين جذبت انتباه مليكها ، لم تكن فى وضع تستطيع معه أن تتيه عجبا بشبابها أو بجمالها ، ولكنها ، وبدرجة غير عادية ، كانت تتمتع بتلك المفاتن الأبقى على الزمن ، والتى يقدرها أعظم التقدير الرجال الذين يتحلون بحسن

الادراك فى شريكة الحيـــاة ... كانت دى مينتنون تتميز بعقل منصف ، ومعين لا ينضب ، ولكنه غير ممل اطلاقا ، من حديث عقلانى رقيق مرح ، ومزاج لا يتكدر صفوه أبدا ، ولباقة فاقت لباقة بنات جنسها ، بقدر ما فاقت لباقة جنسها لباقة جنسنا نحن . تلك هى المناقب التى جعلت من أرملة المهرج فى أول الأمر صديقة جديرة بالثقة ، ثم زوجة لأقوى ملوك أوربا وأكثرهم عطرسة وغرورا (١١) .

وأخيرا نراها من خلال قلم هنرى مارتن ، وهو مورخ فرنسي غير مشهود له بالبراعة كثيرا :

كان ثمة توافق فى الذهن والطباع بين الاثنين (المركيزة والملك) ، وهو توافـــق قدر له أن يزداد على مر الأيام ، كما أن جمالها الناعم المتناسق الرزين الذى زاد منه وقار طبيعى نادر ، كان هو الجمال الذى يرضي لويس أساسا . وأحبت هى التأمل والبحث ، وأحب هو العظمة والمجد . وكانت مثله متحفظة حـذرة ، ومع ذلك تفيض جاذبيـــة ورقة . ولحديثها نفس السحر والفتنة ، اللتين دعمتهمـــا طويلا بفضل خيال أخصب وتعليم ذى جوانب أكثر تعددا . وكانت ذات شخصية تتميز بالأنانية واتخاذ التدابير القوية ، ومع ذلك كانت أهلا لعواطف متينة ثابتة وان لم تكن حارة ، وكانت فى نفس الوقت أقل انفعالا وأشد ثباتا من الملك الذى لم يكن مخلصا حقا فى الصـداقة وفى الحب ، الا لهـــا وحدها . ولكنها لم تعرف قط بم تضحى من أجل عواطفها ، بمصالحها أو بهدوئهـــا . وعلى النقيض من لويس الرابع عشر ، كانت تهتم بالبسيط من الأمور ، ولا تتســـامح فى عظائمها . ان طبيعتها الهادئة المفطـــورة على التـــامل والتفكير ، البعيدة عن الانفعالات والأوهام ، ساعدتها على الدفاع عن فضيلة غالبا كانت محصورة (١٢) .

ومهما يكن من أمر ، فلا بد أن هذه السيدة تحلت بمناقب جديرة بالاعجاب ، حدت بملك مستبد الى أن يختارها زوجة له ، ويعهد اليها بالنظر فى أدق شئون الدولة . وكان عادة يلتقى بوزرائه فى حجرتها الخاصة ، تحت سمعها وبصرها ، وعلى الرغم من انها كانت تجلس

على مسافة معقولة منهم ، وتلتزم الصمت ، حكمة وحزما منها ، منهمكة فى أشغال الابرة ، كان لويس « أحيانا يتجه اليها ويسالها رأيها (١٣)» وأطلق عليها المتشككون « سيدة اللحظة الراهنة » مقدرين انها لن تلبث حتى ينضم اليها المنافسات أو يجلينها عن مكانتها ليحللن محلها ، ولكن على النقيض من ذلك ، ظل الملك الزوج المحب الوفى لها حتى وفاته .

وعظم نفوذها عاما بعد عام . وكان مقرونا بالخير والاحسان قدر ما سمحت به تقواها . وحاولت أن تحد من اسراف الملك وتبذيره ، وأن تصرفه عن الحرب . ومن هنا كان عداء لوفوا لها . ووفرت دى مينتنون اعانات ملكية للصدقات والمستشفيات والأديار ، ومساعدة النبلاء المفلسين ، ومهور البنات (١٤) ولم يحظ بالترشيح للوظائف من جانبها الا الكاثوليك الأخيار ، وكست التماثيل العارية والصور الزيتية العادية التى ازدان بها قصر فرساى بالاستار أو النباتات المعترشة(١٥) . وحولت كلية سان سير الى دير (١٦٩٣) أغلقت أبوابه بعد ذلك أمام العالم . وأصبحت هى نفسها راهبة فى قصر ، « كانت قعيدة القصر تقضي الساعات وحيدة ، ومن ثم بدت وكأن لها قدما فى الدير (١٦) ».

وبدأ الملك بالسخرية من تقواها ، وانتهى بتقليدها فى هذا التواضع . وابتهج القساوسة المحيطون به ليروا مداومته على تأدية طقوس العبادة ، ولكن زوجته كانت تفهمه فهما جيدا ، فقالت « ان الملك لا يخطىء موضعا فى الصليب ، أو موقفا للكفارة أبدا ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك الحاجة الى الخشوع أو الى اذلال نفسه حتى تتجلى فيه الروح الحقيقية للتوبة والندم (١٧) » . وكان البابا اسكندر الثامن راضيا على أية حال ، وهنا مدام دى مينتنون على هداية الرجل الفرنسي الذى كان يوما معاديا للبابوية ، وربما زاد من تقوى الملك اعتلال صحته وضعف جسمه بعد ١٦٨ ، ومعاناته من تاسور فى الشرج ، حيث ذكره هذا كله بأنه فان . وفى ١٨ نوفمبر ١٦٨٦ استسلم لعملية أليمة ، احتملها فى شجاعة أملاها عليه وعيه الطبقى أو ادراكه أنه ملك لا ينبغى له أن يحور و يضعف . ولفترة من الوقت ابتهج الائتلاف المعادى لفرنسا للشائعات التى راجت بأنه على وشك ن يقضي نحبه (١٨) . ولكنه بقى على قيد الحياة . وعندما قصد الى كنيسة نوتردام (٣٠ يناير

١٦٨٧) ليقدم الشكر لله على شفائه ، حيته كل فرنسا الكاثوليكيـــة وابتهجت لابلاله من مرضه وكأنه يوم عيد ٠

قـــال فولتير « ومنـــذ ذلك الوقت لم يذهب الملك الى المسرح قط (١٩) ، ان المرح المقرون بالوقار والعظمة ، والذى كان يميز النصف الأول من حكمه ، قد ولى ليحل محله وقار ورزانة قاربتا أحيانا الصرامة القاتمة والتزمت ، ولكنه سمح بين الحين والحين بشيء من الافـراط فى النوم والطعام (٢٠) ٠ وقد أضناه الارهاق والتعب ، وحيث شجعته ميننون ، فانه أنقص من حفلات البلاط وعروضه ، وأوى الى حيـاة أكثر انعزالا ، قانعا بألفة الحياة الأسرية التى عودته ياها زوجتـه ٠ وظل مسرفا فى الانفاق على القصور والحدائق ، وظل مزهوا أبيا مثل صولجانه ، حساسا مثل فكيه ٠ وفى مارس ١٦٨٦ أجاز لرجل متذلل خنوع من رجال الحاشية ، فرنسوادى أوبيسون دوق دى لافياد فيمـــا بعد ، أن يقيم له فى « ميدان الانتصارات » تمثالا يرمز الى أنه « الرجل الخالد » ٠ على أننا يجب أن نضيف أنه عندما أراد أوبيسون ان يضع ، وفاء بنذر ، امام التمثال مصباحا يضاء ليل نهار ، حظر عليـــه الملك فتراض الالوهية والقداسة بهذا الشكل المبتسر غير الجائز ٠

وضربت جماعة محدودة من الارستقراطيين المخلصـــين ، على رأسهم دوق ودقة شفريز ، ودوقتى بوفلبير ومورتمار ، وبنات كولبير الثلاث ، ضربت حول الملك وزوجه « نطاقا كريما من الأتقياء » وكان كثير منهم متمسكين بأهداب الدين حقا ، كما نقل بعضهم عن مدام جويون طمانينتها المتصوفة ٠ وحوالى هذا الوقت ألف شاعر فرنسي غير معروف الترنيمة الذائعة الصيت والمعروفة باسم « المؤمنون الاخيار » وشارك بقية أفراد البلاط ، الملك مزاجه الجديد ، ظاهريا فقط ٠ وتخلوا عن اللهو والعبث ، وكثيرا ما حضروا القداس وتناولوا القربان المقدس ، وقل شيئا فشيئا ذهابهم الى الاوبرا والمسرح اللذين هبطا آنذاك بسرعة من عليائهما على عهد لللى ومولييير ، واستمر الصيد والقنص والمآدب الباذخة وحفلات الرقص ، ولعب الورق بمبالغ ضخمة ، ولكن فى جو من الاعتدال تشوبه مسحة من الكآبة ٠ واخفى المعربدون الصاخبـــون والمفكرون الاحرار فى باريس رؤوسهم ، انتظار للثـــار فى ظل وصي

يرقبون مجيئه بفارغ الصبر • ولكن شعب فرنسا ابتهج لقداسة مليكه ، واحتمل فى صمت ، فى الموت وفى الضرائب ، أعباء الحرب المتزايدة •

٢ ـ الحـلف الأعظـم ١٦٨٩ ـ ١٦٩٧

زادت الضرائب حتى مع هبوط مستوى الرخاء والازدهار • وكان مشروع كولبير لتنظيم التجارة والصناعة بواسطة الحـكومة ، قد بدأ ينهار قبل موته (١٦٨٣) • لقد مات المشروع ، من ناحية نتيجة لسوق الرجال من المزارع والمصانع الى المعسكرات وميادين القتال ، ولكنه انهار أساسا نتيجة الاختناق الذاتى : ذلك أن التنظيمات الحكوميـــة عوقت النمو الذى كان يمكن أن يؤتى ثماره فى ظل رقابة وقيود أخف ، وفى ظل مزيد من الحرية للتنفس والتجريب والخطـأ • ووجد حب العمل والمثامرة أنه مقيد بمتاهة من الاوامر والعقـــوبات • وضجت وتعثرت الآلة المعقدة للنشاط الاقتصادى ، التى يحركها الجوع الكادح فى الكثرة الكاثرة من الناس والجشع المبدع الخلاق عند فئة قليلة منهم، تحت ضغط عبء ثقيل من القواعد ، حتى هددت هذه الآلة بالتوقف • وما وافى عام ١٦٨٥ حتى ترددت صيحة « اتركه يعمل » ، قبل ظهور فرنسواكسناى وترجو بخمسة وستين عاما ، وقبل ظهور آدم ســـميث بواحد وتسعين عاما • وقال أحد أتبـاع لويس الرابع عشر « ان السر الأعظم يكمن فى اطلاق الحرية الكاملة للتجارة • ان أصحاب المصانع لم يصابوا قط بمثل هذا الخراب والدمار فى هذه المملكة الا منذ فكرنا أن ندعمهم بقوانين من الدولة (٢١) » • وثمة عوامل أخرى أسهمت فى هذا الانهيار • وذلك أن الهيجونوت الذين فروا من الاضـطهاد ، حملوا معهم مهاراتهم الاقتصادية ، وفى بعض الاحيان مدخراتهم أيضا• وعانت التجارة من رغبة الملك فى الغزو والفتح ، لا الاتجار • وعوقت الرسوم الأجنبية صادرات فرنسا انتقاما من رسوم الواردات الفرنسية • وأثبت الانجليز والهولنديون أنهم رجال بحر واستعمار من الغاليين (الفرنسيين) المتغطرسين النافدى الصبر • وأخفقت شركة الهنـد ، وعوقت الضرائب الزراعة • وأفسدت العملة المزيفة مرفق المال ، وشلت حركته وأحدثت فيه الاضطراب •

ولم يكن ثمة وجه للمقارنة بين الوزراء الذين خدموا لويس الرابع عشر بعد وفاة كولبير • وبين أولئك الذين ورثهم عن ريشليو ومازاران • وتولى ابن كولبير ، جان بابتست ، مركيز سينلى وزارتى التجـارة والبحرية ، وتولى كلود بلتييه الشئون المالية ، ولكن سرعان ما خلفه فيها لويس فيليبو سنيور دى بونتشارتران •• أما لوفوا فقد بقى وزيرا للحربية • ولكن أرهب الوزراء الجدد ما جمع لويس الرابع عشر من مجد وسلطان ، فقعد بهم الخوف عن اتخاذ أى قرار ، واعتمد دولاب الحكومة على ذهن الملك المكدود المرهـــق • ولم يكن يتصرف بمحض ارادته الا لوفوا ، من أجل الحرب ـ ضد الهيجونوت ، وضد الأراضي الوطيئة ، وضد أى أمير أو شعب اعترض طريق فرنسا المتوسعة • وكان لوفوا قد أنشأ أحسن جيش فى أوربا ، ودربه على النظـام والانضباط والبسالة ، وزوده بأحدث الأسلحة ، وعلمه الفن الرشيق فى استخدام الحراب● • فكيف يتيسر اطعام مثل هذه القوات والمحافظة على روحها المعنوية الا اذا حاربت وانتصرت ؟

ونظرت فرنسا الى الجيش بعين الاعجاب والفخر ، على حين ستشاطت أوربا غضبا وارتعدت فزعا لدى سماعها به • وفى مايو ١٦٨٥ ، عندما طالب لويس الرابع عشر بجزء من أملاك ناخب البـــالاتين ، ميراثا يستحقه عن أخت الناخب المتوفاة شارلوت اليزابث ، دوقـــة أورليان آنذاك ، تساءل أمراء الامبراطور عجبا : ماذا عسي أن تكون مطالب الملك المغامر المعتدى بعد ذلك • وزادت حدة التوتر عندما ربط لويس بالفعل ، كولون وهلدشيم ومونستر بفرنسا ، بضمان انتخـــاب مرشحيه حكاما أسقفيين لهذه البلاد (١٦٨٦) • وفى ٦ يوليـــه انضم الامبراطور الكاثوليكى ليوبولد الاول ، والناخب الكاثوليكى مكسيمليان الثـــانى وامانويل أمير بافـــاريا ، الى ناخب براندنبرج الأعظـــم البروتستانتى ، وفى تكوين عصبة أوجزبرج للدفاع ضد أى هجوم على أراضيهم أو عدوان على دولهم • وكان الامبراطور مشغولا مع الاتراك

● صنعت الحربة فى مدينة بايون (جنوب فرنسا) فى عام ١٥٠٠ • ولكنه يبدو نها استخدمت على نطاق واسع لاول مرة فى ايبر (شـــمال غرب بلجيكا) ١٦٤٧ (٢٢) •

المتقهقرين ، ولكن هزيمتهم فى « موهاكز » الثانية (١٦٨٧) وفى بلغراد (١٦٨٨) أطلقت يد القوات الامبراطورية للعمل على الجبهة الغربية للامبراطورية ٠

وارتكب ملك فرنسا آنذاك أكبر خطأ فى سجل حياته العسكرية ٠ وكان حاكم هولنده يتوقع منه أن يجدد هجومه على هولنده ، ولكن لويس ، بدلا من ذلك ، قرر غزو ألمانيا قبل أن تتمكن القوات الامبراطورية من الاحتشاد على جبهته ٠ وفى ٢٢ سبتمبر ١٦٨٨ تقدمت قواته الرئيسية نحو الراين ٠ مع توجيه خاص متميز الى الدوفين ذى السبعة والعشرين ربيعا : « أى بنى ، انى اذ أبعث بك لتتولى أمرة جيوشي ، انما أهيىء لك كل الفرص لتثبت جدارتك ، فاكشف عنها لكل أوربا ، حتى اذا حان أجلى ، لا يشعر أحد بان الملك قد قضي نحبه (٢٣) » ٠ وفى ٢٥ سبتمبر اجتاح الجيش الفرنسي ألمانيا ٠ وفى غضون شهر واحد استولى على كايزرسلوترن ، ونيوستاد ، وورمز وبنجن ومينز وهيدلبرج ٠ وفى ٢٩ أكتوبر سقطت قلعة فيليبسبرج المنيعة ، وفى ٤ نوفمبر تقدم الدوفين المنتصر لمهاجمة مانهيم ٠

وربما كان فى هذه الانتصارات بداية سقوط الملك ، لانها ورطت الملك فى حرب طويلة الأجل ضد عدد متزايد من الاعداء ، لقد حرروا هولنده من الخوف من غزو مبكر ، وأقنعوا برلمان المقاطعات المتحدة بالموافقة على أن يغزو وليم الثالث انجلترا ويعاونه على أعمال الغزو ٠ وما أن وثق وليم من قوته حتى حول انجلترا من بلد تابع لفرنسا الى عدو لها ٠ وعاهد رعاياه الجدد على الوقوف الى جانبهم فى الدفاع عن أوربا السياسية والدينية ٠ وتردد برلمان انجلترا ، مرتابا فى أن وليم معنى فى الدرجة الأولى بانقاذ هولنده ، وهى أكبر منافس تجارى لانجلترا ، ولكن انصارات فرنسا قوت من جديد حجة وليم ٠

وكان لوفوا قد استحث لويس على السماح له باكتساح البالاتينات وتخريبها حتى يحرم العدو المقترب من أية معونة محلية ، ووافق لويس على كره منه ٠ وفى مارس ١٦٨٩ أعمل الجيش الفرنسي السلب والنهب وأحرق هيدلبرج ومانهيم ثم سبير ، وورمز وأوينهايم وأجزاء من أسقفية تريير ومنطقة بادن ، حتى دمرت كل أراضي الراين الالمانية

تقريبا • ووصف فولتير هذه الفظائع حيث استيقظ فيه ضمير « الرجل الاوربى الطيب » :

كنا فى قلب الشتاء • وما كان ينبغى للقواد الفرنسيين الا أن يمتثلوا وبناء على ذلك أعلنوا لمواطنى هذه المـــدن المزدهرة المنظمة أحسن نظام ، ولسكان القرى ، ولأصحاب أكثر من خمسين قصرا ، أن عليهم أن يغادروا مساكنهم التى سيعملون فيها النار والسيف • فأسرع الرجال والنساء والشيوخ والاطفال الى الرحيل • وهام بعضهم على وجوههم فى الريف ، والتمس بعضهم مأوى فى الأراضي المجـــاورة ، على حين نهب الجنود المنطقة وأحرقوها ، وبدأوا بمدينتى هيدلبرج ومانهيم ، ومقار الناخبين ، ودمرت قصـــورهم وبيوت المواطنين العاديين على السواء • وللمرة الثانيـــة اجتاحت جيوش لويس الرابع عشر هذه البلاد الجميـــلة وخربتها • ولكن ألسنة النيران فى المدينتين والعشرين قرية التى أحرقها تورين عندما اجتاح البالاتينات ١٦٧٤ ، كانت شيئا لا يذكر أو شررا بسيطا الى جانب الحرائق فى هـــذه المرة (٢٤) •

وتعالت الصـيحات تطالب بالانتقـــام من ملك فرنســـا فى كل أنحاء ألمانيـــا والاراضي الوطيئـــة وانجلترا ووصم الكتـــاب الألمـــان الجنود الفرنسيين بأنهم متوحشون (هون) مجردون من أية مشاعر انسانية • ونعتوا لويس بأنه مسخ كافر مجدف همجى بالغ الهمجية • وعير المؤرخون الألمان الشعب الفرنسي بأنه تلقى حضارته من الفرنجـة (أى الألمان) وأنه نقل جامعاته عن الامبراطورية الرومانية المقدســة (أى الألمان كذلك) (٢٥) • وكان بييرجوريو ، أحـــد المنفيين فى هولنده قد نشر هناك لفوره نقدا ساخرا عنيفا تحت عنوان « منظر فرنسا المستعبدة » ، ودمغ فيه لويس بأنه طاغية شديد التعصب ، وأهـــاب بالشعب الفرنسي أن يطيح به ، ويشكل ملكية دستورية • وردت الصحافة الفرنسية بتوجيه النداء الى المواطنين ليقذفوا بهذه الشتائم فى وجـه العدو ، ويهبوا الى انقاذ مليكهم الشجاع المحبوب المحاصر • وفى ١٢ مايو ١٦٨٩ انضمت انجلترا الى الامبراطورية وأسبانيا والمقاطعـــات

المتحدة والدنمرك وسافوى ، فى الحلف الأعظم الاول ، الذى تعهد بالدفاع عن أى من أعضائه ضد أى عدوان خارجى • وكانت الحرب آنذاك حرب أوربا ضد فرنسا •

فكان جواب لويس على ذلك أنه زاد عدد جنوده الى أربعمائة وخمسين ألفا ، وبحريته الى مائة ألف ، ولم تشهد أوربا قط من قبل مثل هذه القوات المسلحة • وصهر الملك كل ما لديه من أدوات فضية ليعاون الضرائب على دفع نفقات هذه الحشود الضخمة ، وأصدر أوامره الى كل الافراد المرموقين والى كثير من الكنائس ليفعلوا مثل ما فعل ، وأجاز لبوبنتشارتران أن يعيد سك الفضة وينقص قيمة العملة بمقدار ١٠ ٪ • وخلق الوزير مناصب جديدة ، وأعاد وظائف قديمة كانت قد ألغيت ، وباعها لطلاب الوظائف المفتونين بالألقاب ، وقال للملك : « كلما خلقتم جلالتكم وظيفة خلق الله مغفلا يشتريها (٢٦) » •

وأشار سينلى على الملك بأن يأمر أسطوله بسلخ ايرلنده عن انجلترا • وكان من الجائز أن يتم ذلك ، ففى ٣٠ يونية ١٦٩٠ هزم أمير البحر تورفيل بخمس وسبعين سفينة ، أسطولا انجليزيا هولنديا فى بيتشي هيد بالقرب من شاطىء سسكس الغربى • ولكن لويس لم يرسل سوى ألفى جندى لمساندة جيمس الثانى فى أيرلندة • وكان من المحتمل أن تكسب قوة أكبر معركة بوين (أول يولية ١٦٩٠) ، وأن تشغل انجلترا ومليكها الهولندى فى أيرلنده ، الى حد يصعب معه الاشتراك فى القتال فى القارة • ولكن انتصار وليم الثالث مكنه من الذهاب الى هولنده ليقود قوات انجليزية وهولندية ضد الفرنسيين (١٦٩١) ، وحاول لويس فى ١٦٩٢ غزو انجلترا ، وصدرت الاوامر الى أسطول فى تولون بالابحار شمالا لينضم الى أسطول تحت أمرة تورفيل فى برست وكان عليهما أن يقضيا على كل مقاومة من جانب الانجليز ، ويحملا ثلاثين ألف جندى عبر القنال الانجليزى • ولكن عاصفة فى جبل طارق عطلت مسيرة أسطول طولون ، فأخفق فى اللحاق بتورفيل الذى كان عليه أن يواجه وحده الأسطولين الانجليزى والهولندى مجتمعين ، وهزم فى التحام حاسم عند لاهوج بالقرب من شربورج (١٩ مايو ١٦٩٢) • وتوقف غزو انجلترا • وظلت انجلترا سيدة البحار بعد هذه المعركة ، ومطلقة اليد فى الاستيلاء على مستعمرات

فرنسا الواحدة تلو الأخرى • وحمى القنال انجلترا حتى يومنا هذا •

وتابع الفرنسيون انتصارهم فى البر ، ولكن بأبهظ التكاليف فى العتاد والرجال • وفى أبريل ١٦٩١ استبد بهم الزهو والغرور الى حد الجنون أمام مليكهم حين حاصروا واستولوا على هونز الحصينة • وقضي لوفوا نحبه فى ٧ يوليه ، ولكن الملك لم يأسف كثيرا على تخليصه من وزير حربيته الذى كان ينتهج سياسة العدوان • ورأي منذ ذلك الوقت أن يتولى توجيه السياسة العسكرية بنفسه • واتبع تقليدا فرنسيا قديما حين عهد بمنصب لوفوا الى ابنه ، وكان شابا لطيفا سهل الانقياد فى الرابعة والعشرين من العمر ـ مركيز باربيزييه • وفى يونيه ١٦٩٢ قاد لويس قواته بنفسه للاستيلاء على نامور • ثم ترك القيادة لدوق دى لكسمبرج وعاد ليرتشف خمرة المجد والنصر فى فرساى • وفاجأ وليم الثالث الدوق فى ستينكرك فى يوليه ، ودارت الدائرة على الفرنسيين فى أول الامر ، ولكنهم أعادوا تنظيم صفوفهم واستعادوا شجاعتهم بفضل توجيه قائدهم الذى كان قدوة حسنة لهم ، وكان مريضا ولكنه كان لا يقهر ، فكانت الغلبة للفرنسيين مرة أخرى ، ولو أنهم حققوها بثمن غال ، وهناك قاتل فى طليعة الجيش فيليب الثانى دى أورليان الوصي على عرش فرنسا فى المستقبل ، والذى لم يبلغ آنذاك الخامسة عشرة من العمر ، فأصيب بجرح ثم عاد فاستأنف القتال • وهناك أظهر لويس الشاب ، ودوق دى بوربون كونديه (حفيد كونديه الأكبر) الذى عرك الحرب فى ثلاثة حصارات ، وفرنسوا لويس دى بوربون وأمير كونتى ، ولويس جوزيف دوق فندوم (ابن حفيد هنرى الرابع) وكثير غيرهممن النبلاء الفرنسيين ـ أظهر هؤلاء جميعا من ضروب البسالة والشجاعة والشهامة ما جعلهم ، على الرغم من حياتهم المترفة الخاملة زمن السلم ، معبودات فى نظر شعبهم زمن الحرب ، ونماذج حتى لأعدائهم ، حتى لقد تساءل متعجبا أحد أسراهم وهو الكونت سالم : « أية أمة أنتم : أشد الاعداء بأسا ورهبة فى الحرب ، وأكرم الأصدقاء عند النصر (٢٧) » •

وبعد ذلك بعام واحد هزم نفس الجيش تحت أمرة نفس القائد ، وليم فىنيروندن بالقرب من بروكسل ، وهنا أيضا كان عدد القتلى ضخما ـ عشرون ألفا من الحلفاء وثمانية آلاف من الفرنسيين • ومهما

يكن من أمر الهزائم التى منى بها وليم ، فانه ظهـر على رأس جيش جديد وتوافرت لديه أموال جديدة . فاسترد نامور فى أغسطس ١٦٩٤ ، واكتشفت فرنسا أنها بعد خمس سنوات أريقت فيها الدماء ، عجزت عن غزو حتى الأراضي الوطيئة الاسبانية . وانتصرت جيوش فرنسية أخرى فى أسبانيا ، ولكنها وجدت من العسـير عليهـا الاحتفاظ بثمـرات انتصاراتها أمام أعداء خرجوا عليها من كل جانب ، وقد اسـتكملوا ما ظهر لديهم من نقص فى العتاد والرجال ، وفى يوليه ١٦٩٤ أبحـر أسطول انجليزى لمهاجمة برست . وكان بعض الأصدقاء فى انجلترا (من بينهم كما يقال مالبرو نفسه (٢٨)) قد أبلغوا جيمس الثانى عن هذه الخطة سرا ، ومن ثم فان الفرنسيين الذين أنذروا بها من قبل ، نصبوا المدافع على الشاطىء عند برست ، وصدوا الانجليز عنها بعد أن تكبدوا خسائر فادحة .

وفى يناير ١٦٩٥ قضي مارشال دى لوكسمبرج نحبه ، فلم يعد مع لويس الرابع عشر الا قواد من الدرجة الثانية ، ان الحلفاء نادرا ما وطئت أقدامهم أرض فرنسا ، ، ولكن فرنسا نفسها كانت تحس بوطأة حرب من نوع جديد ، لم يكن يحارب فيها مرتزقة مأجورون ، بل أمم بأسرها جندت لينافس بعضها بعضا فى القتـل والتنكيل . وحتى فى الوقت الذى كان الشعب الفرنسي يهتف لقواده وأبطاله ويهلل لهم ويحيى انتصاراتهم ، فانه ، وقد أثقلت الضرائب كاهله بشكل لم يسبق له مثيل ، قارب حد الاستنزاف جسدا وروحا . وانضم القحط الى الفقر والعوز فى ١٦٩٤ فكان ضغثا على ابالة . وفى أبرشية واحدة مات ٤٥٠ شخصا جوعا (٢٩) وكان الاقتصاد القومى على شفا الانهيار . وعمت الفوضي وسائل النقل ، حيث توقف تقريبا اصلاح الجسور والطرق أثناء الحرب . واختنقت التجارة الداخلية نتيجة المكوس التى كانت تجبى فى مائة موقـع عبر الأنهار أو فى البر . وكانت التجارة الخارجية قد شلت حركتها نتيجة لرسوم الصادرات والواردات . وكادت الآن تكون متعذرة تماما لوجود أساطيل الأعداء والقرصان . وساءت أحوال أولئك الذين كانوا يعتمدون على صيد الأسماك والتجارة على الشواطىء . ونضبت موارد مئات من المدن بما كانت تقدم من معونة ومؤونة للفرق العسكرية التى تنزل بها ، وهبط الفقر والقحط والمرض والحرب بعدد سكان فرنسا من نحو ٢٣

مليونا فى ١٦٧٠ الى نحو ١٩ مليونا فى ١٧٠٠ (٣٠) • وفقدت محافظة تورين ربع سكانها • ولم يبق من سكان عاصمتها تور الا ٣٣ ألفـــا من ٨٠ ألفا كانوا يقطنونها فى عهد كولبير • وهاك نموذجا من تقـــارير المحافظين والحكام من مختلف أقاليم فرنسا فى أخريات القرن السابع عشر :

ان هذه المدينة التى كانت فى سابق أيامهـا غنيـــة مزدهرة ، باتت الآن بلا صناعة ••• وكان فى هذا الاقليم مصانع كثيرة ، ولكنها اليوم هجرت •• •• وكانت الأرض تدر فى سابق الأيام خيرا أكثر مما تفعل الآن ، ومنذ عشرين عاما كانت الزراعة أكثر ازدهارا بشكل غير محـــدود • وتناقص السكان والانتاج بمقـــدار الخمس فى الســـنين الثلاثين الاخيرة (٣١) •••

وفى ١٦٩٤ وجه فنيلون ، الذى سيصبح عما قريب رئيس أساقفة كمبراى ، الى لويس الرابع عشر خطابا غفلا من التوقيع ، يعد أبلغ تعبير عن الروح الفرنسية :

مولاى ، ان هذا الذى يسمح لنفسه أن يكتب اليك هذه الرسالة ، ليس له مصلحة دنيوية ، ولا يكتب بدافع اليأس ولا الطمع ، ولا بدافع الرغبة فى التدخل فى أمهات المسائل• انه يحبك دون أن يكون معروفا لديك ، ويرى الله فى شخصك •• •• انه لا يبالى بأى أذى يحتمله عن طيب خاطر ، فى سبيل ادراكك للحقائق الضرورية لخلاصك • ولا تدهش اذا وجه اليك حديثا شديد اللهجة ، فماذاك الا لأن الحـق حر وقوى ، ولو أنك لم تألف سماعه • ويخطىء الذين تعودوا الملق والنفاق ، فيظنون الحق الصراح الخالص استياءا أو مرارة أو افراطا ومبالغا • وقد يكون خيانة للحق أن نحجبه عنك • والله خير شاهد على أن الذى يحدثك الآن ، انمـا يفعل ذلك بقلب عامر بالغيرة والحماسة وبالاجلال والثقة والاخلاص ، لكل ما فيه مصلحتك الحقيقية •••

ان كبار وزرائك ، طيلة الثلاثين عاما الماضية ، قلبوا المبادىء الأساسية والقواعد العامة فى الدولة ، حتى يرفعوا

من شانك ويزيدوا من سلطتك الى أقصي حد ، لأن هـــذه السلطة كانت فى أيديهم • ولم يرتفع صـــوت بالكلام عن الدولة وقوانينها ، بل تحدث الجميع عن الملك ووســـائل ارضائه • وزادوا فى مواردك وفى نفقاتك بغير حـدود ، انهم رفعوك الى السماكين حتى تمحو ، كما يقولو ، آثار عظمة أسلافك مجتمعين • ولكنهم فى الواقع أفقروا فرنسا بأسرها ، ليمتعوا البلاط بترف رهيب لاشفاء منه • أن هؤلاء الوزراء أرادوا أن يرفعوك على أنقاض كل طبقة فى الدولة، وكأنما يمكن أن تكون عظيما حين تدمر كل رعاياك الذين يعتمد عليهم مجدك وعظمتك • انك حقـــا حريص على الاحتفاظ بسلطانك •• ولكن الواقع أن كل وزير سيد متصرف فى نطاق اختصاصه • وكانوا قساة متغطرسين ظالمين غلاظا ضعيفى الايمان • ولم يعرفوا فى الشئون الداخلية والخارجية الا مبدأ واحدا ، هو التهديد والوعيد ، أو القضاء على كل ما يقف فى طريقهـــم وتدميره • لقد عودوك على أن تتلقى دوما أعظم المدح والثناء ، مما يقارب عبادة للأوثان تأليها لك ، مما كان يجدر بك أن تأباه سخطا وازدراء ، من أجل شرفك وكرامتك أنت • لقد جعلوا اسمك كريها بغيضـــا • والامة الفرنسية بأسرها غير محتملة لدى الشعوب المجاورة• ولم يحتفظوا بأى من حلفائك القدامى ، لأنهم لم يريدوا الا عبيدا أرقاء • وكانوا طيلة عشرين عاما ، سببا للحروب الدامية ـ التى لم يكن من دافع لها الا المجد والانتقـــام .. .. ان كل التوسع الذى أتت به الحروب كان غصـــبا وظلما • انك أردت دوما أن تملى الصلح وتفرض الشروط ، بدلا من تسوية الأمور فى شيء من الاعتدال • وهذا هـــو السبب الذى من أجله لم يدم أى صـــلح طويلا • ولم يكن أعداؤك الذين هزمتهم ولطختهم بالعار والخزى ، يفكرون الا فى شيء واحد ، هو أن ينهضوا من جديد ، ويوحدوا أنفسهم ضدك • هل فى هذا ما يدهش ؟ انك لم تتمهل قط فى نطاق شروط الصلح التى أمليتها فى زهو وخيلاء ، وفى زمن السلم قمت بحروب وفتوحات هائلة •• ومثل هذا التصرف

أثار كل أوربا ووحدها ضدك ٠

وفى نفس الوقت ، فان شعبك الذى كان يجدر بك أن تحبه حبك لأبنائك ، والذى ظل حتى هذه اللحظـــة مخلصا لك ، يموت جوعا ٠ لقد تخـلوا تقريبا عن زراعة الأرض ٠ وهبط عدد السكان فى المدن والريف ، وانحطت الصناعة فلم تعد تفى بحاجيات العمال ٠ وانهارت التجـارة بأسرها ٠ انك استنزفت نصف ثروة الأمة وحيويتها للقيام بفتوحات عقيمة فى الخارج والدفاع عنها ٠ ان كل فرنســا عبارة عن مستشفى ضخم مقفر بائس تنقصه المؤن ٠ والحكام مرهقون محتقرون ، وتتزايد الثورات الشـــعبية التى لم نعهدها منذ زمن طويل ، ولا يستثنى من ذلك باريس القريبة منك جدا ٠ ولزام على موظفيها أن يحتملوا وقاحة العصـاة والثائرين ٠ وينثروا عليهم الاموال ليهدئوا من روعهم ٠ لقد انحط بك الحال الى النتيجة المؤسفة المخزية ، وهى التراخى فى عقاب الفتن ، وبذلك تتفاقم ، أو قتل أناسي بلا شفقة ولا رحمة ، زرعت أنت فى قلوبهم اليـأس ، حين اختطفت من أفواههم ، بفعل ضريبة الحرب ، الخبز الذى كدحوا للحصول عليه بعرق الجبين ٠٠ ٠٠

لقد كان سيف الله مصلتا فوق رأسك منذ أمد طويل ، ولكنه سبحانه تمهل فى أن يهوى به عليك ، لأنه يرثى لأمير أحيط طيلة حياته بمتملقين أذلاء ، وكذلك لأن أعداءك هم أعـداؤه ٠٠ ٠٠ انك لا تحب الله ، ولكنـــك تخافه فقط ، خوفا حقيرا من قبيل التقليد والمحاكاة ٠ ولا تقوم ديانتك الا على الخرافات ، وعلى بعض طقوس تافهة سطحية ٠٠٠ انك لا تحب الا عظمتك ومكاســبك ، وترد كل شيء الى ذاتك ، وكأنما أنت اله هذه الأرض ، وكأنمـــا خلقت كل الأشياء للتضحية بها من أجلك ٠ ولكن الأمر على النقيض من ذلك ، فان الله قد أقامك فى هذه الدنيـــا من أجـــل شعبك ٠٠ ٠٠

لقد راودنا يا مولاى الأمل فى أن يردك مجلسك عن الطريق غير المستقيم • ولكن لم يكن لديه القوة والجراة • وكان من الجائز أن تستغل مدام دى مينتنون ، ومسيو بوفيلييه ، على الاقل ، الثقةالتى أوليتهما اياها ليمحضاكالنصح دون خداع ولا تضليل ، ولكن ضعفهما وجبنهما خزى وعار وسبة لنا أمام العالم أجمع • وربما تساءلت يا مولاى :

ماذا عساهما أن يفعلا •• والجواب بانه كان عليهما أن يرشداك الى أن تذل وتخشع بين يدى الله القوى القدير ، اذا أردت ألا يفرض عليك سبحانه وتعالى الذلة والهوان ، وأنه يجدر بك أن تطلب الصلح ، وتكفر بهذا الخشوع والتواضع عن العظمة التى جعلت منها معبودا لك • وأنه من أجل انقاذ الدولة ينبغى عليك بأسرع ما يمكن أن ترد الى أعدائك ما لا يحق لك أن تحتفظ به عدلا وانصافا •

مولاى : ان هذا الذى يبسط لك هذه الحقائق ، وهو أبعد ما يكون عن الوقوف فى وجه مصالحك ، مستعد أن يضحى بحياته فى سبيل أن يراك كما يريد الله لك أن تكون، ولن يكف عن الدعاء لك والصلاة من أجلك ●

ولم يجرؤ فنيلون على ارسال هذه الرسالة مباشرة الى الملك ، فرتب أمر تسليمها الى مدام دى مينتنون ، وربما كان يأمل فى أنها قد تتأثر بها ، حتى ولو لم تطلع لويس عليها ، باعتبار أن الرسالة تعكس حالة الشعب ، فتستخدم السيدة نفوذها من أجل الصلح والسلام، ولكنها حولتها الى رئيس الاساقفة دى نواى ، مع تعليق منها نصه : «لقد أحسن الكاتب ، ولكن مثل هذه الحقائق قد تهيج الملك أو تفت فى عضده •• • وينبغى علينا أن نوجهه برفق فى الطريق الذى يجب أن

●عن الأصل الفرنسي فى كتاب Fellows and Torrey « عصر الاستنارة » ص ٩١ ــ ٩٥ • ونشرت الرسالة لأول مرة فى دالمبرت ١٧٨٧ • وبقيت مشكوكا فى صحتها حتى ١٨٢٥ • حيق وجدت نسخة منها بخط فنيلون نفسه (٣٢) •

يسلكه (٣٣) » . وكانت قد كتبت فى ١٦٩٢ . « أن الملك يدرك ما يعانيه شعبه ، وهو يتلمس كل الوسائل للتخفيف عنه (٣٤) » ، ومما لا شك فيه أنها كانت تعرف ما كان يمكن أن يرد به الملك على فنيلون : ان مبادىء المسيحية لا يمكن أن تستخدم فى ادارة شئون الدول ، وأنه يمكن عدلا التضحية بجيل من الفرنسيين ، اذا كان فى هذه التضحية تأمين لمستقبل فرنسا ، بفضل حدود طبيعية يسهل الدفاع عنها ، وان أية محاولة للوصول الى الصلح والسلام من أعداء متحالفين متعطشين الى الانتقام، قد تعرض فرنسا للغزو والتمـــزيق . واذ وقعت الســيدة مينتنون فى صراع بين دين الاخوة وبين فلسفة الحرب ، فقد كثر ترددهـــا على سان سير ، والتمست فى رفقة الراهبات الشابات السعادة التى افتقدتها فى الجاه والسلطان (٣٥) .

وقبيل انتهاء الحرب قدم بييرلى بيزان ، حاكم بواجلبرت ، وقائد المنطقة المحيطة بروان ، الى وزير المالية بونتشارتران مشروعا لتخفيف الفوضي الاقتصادية والضائقة العامة : « أصغ الى فى شيء من الصبر ، انك ستحسبنى أول الامر مجنونا ، ثم تتبين فيما بعد انى استحق أن تعيرنى انتباهك ، وسترضيك آخر الأمر أفكارى » . ولكن بونتشارتران سخر منه وطرده . ونشر الحاكم الغاضب مخطوطته المرفوضة بعنوان « مشكلة فرنسا » (١٦٩٧) واستنكرت هذه الرسالة تعدد الضرائب التى يقع العبء الأكبر فيها على عاتق الفقراء ، ولا يصيب الاغنياء منهـا الا النزر اليسير ، واتهمت الكنيسة بابتزاز الكثير من الأرض والثروة ، وأنحى بأشد اللائمة على مديرى المال الذين تمتد أصابعهم البغيضة الى الضرائب التى يجمعونها للملك (٣٦) . وأضعف من حجة الرســالة ما جاء بها من مبالغات واحصاءات غير مدروسة ، وآراء خاطئة عــن تاريخ الاقتصاد الفرنسي قبل كولبير ، ولكن زاد من قيمة الرســالة ما تضمنته من آراء ثاقبة ليست على استعداد لفهمها أية حكومة تعودت تقنين كل شيء وتحديده . وكان بواجلبرت من أوائل من رفضوا تضليل « المركنتلية » (نظام اقتصادى قائم على تنظيم حكومى اســتغلالى صارم) ، بأن المعادن النفيسة تشكل فى حد ذاتها ثروة ، وأن الغــرض من التجارة هو تكديس الذهب . وكان من رأيه أن الثروة هى توافــر السلع والقدرة على انتاجها ، وأن الثروة الاساسية هى الأرض ، وأن الفلاح عماد الاقتصاد ، وأن دمار هذا الفلاح يعنى دمار الجميع ، حيث

أن كل الطبقات فى النهاية ، مرتبطة بمجتمع ذى مصالح · وكل منتج مستهلك ، وأية فائدة يجنيها بوصفه منتجا لا بد عاجلا أو آجـــلا أن يفقدها نتيجة لما يلحقه من خسارة باعتباره مستهلكا · وكان نظام كولبير فى التقنين والتحديد ، نظاما خاطئا ، لأنه عوق الانتاج وسد منافـــذ التجارة · وأحكم أسلوب هو ترك الناس أحرارا ينتجـــون ويبيعون ويشترون ، دون قيود فى نطاق الدولة ، دعوا الطموح وحب الكسب الطبيعيين فى الناس يعملان عملهما بحد أدنى من القيود المشروعة · فانهم حين يتحررون على هذا النحو ، سيبتدعو نأساليب ومشروعات واستخدامات وأدوات جديدة ، وسـيضاعفون من خصـــوبة الارض ، ومنتجات الصناعة ، ومدى التجارة ونشاطها ، وهذه الزيادة الناتجة فى الثروة ستوفر للدولة دخلا جديدا · ولا بد أن ينشأ عن هذا بعض المظالم والجور ، ولكن العملية الاقتصادية ستعالجها جميعا · وهنا نجد مرة أخرى « اتركه يعمل » قبل أن تبلغ حرية العمل الرأسمالى ذروتها فى عالم الغرب ، بقرنين من الزمان ·

وقد يغتفر للملك ووزرائه ، اذا أحسوا أن الحرب ضد نصف أوربا لم تكن وقتا ملائما لمحاولة القيام بانقلاب اقتصادى بعيد المدى ، فزادوا من الضرائب بدلا من اصلاح الاقتصاد · وفى ١٦٩٥ فرضت ضريبـــة الرءوس ، وكان المفروض أن تكون على كل ذكر فى فرنسا ، وبرروها بانها مؤقتة ، ولكنها استمرت حتى ١٧٨٩ · وكان النبلاء ورجال الدين والحكام خاضعين لها من الوجهة النظرية ، ولكن من الوجهة العملية اشترى رجال الدين الاعفاء منها نظير اعانة متواضعة ، على حين وجد النبلاء والماليون ثغرات فى القانون ينفذون منها الى الاعفاء · ولجأوا الى كل الوسائل لابتزاز المال من الشعب · ونظم « اليانصيب » وبيعت المناصب ، وخفضت قيمة العملة ، وتوددوا الى الأغنياء واســتحثوهم على عقد قروض للدولة · واحتفى الملك نفسه برجـــل من أصـــحاب المصارف ، هو صمويل برنارد ، وتقاضي منه الملايين بعد أن بهـــرته هالة العظمة التى أحاط بها الملك نفسه ، وفقد وعيـه بســحر الملك وفتنته ، وعلى الرغم من كل الضرائب ووســائل الابتزاز ، قديمهـــا وجديدها · بلغ مجمـوع دخـــل الدولة فى ١٦٩٧ ، ٨١ مليـــونا من الجنيهات ، على حين بلغت المصروفات ٢١٩ مليونا ·

واعترف لويس آخر الامر بأن انتصاراته استنزفت حياة فرنسا . فأصدر أوامره الى سفرائه ومبعوثيه بمحاولة الوصول الى تفاهم مع أعدائه . وقد أنقذته براعتهم ، الى حد ما . فاقنعوا دوق سافوى فى ١٦٩٦ بعقد صلح منفرد مع لويس . وسمح بتناثر الأنباء بأنه سيكف عن تأييده لآل ستيوارت ، ويعترف بوليم الثالث ملكا على انجلترا . وكان وليم نفسه يرى أن المال أغلى من الدماء ، وشكا من أن « فقره أمر لا يصدق » . واشتدت معارضة البرلمان لاعتماد الأموال اللازمة لقواته. وطالب ، تمهيدا لعقد الصلح ، بطرد جيمس الثانى من فرنسا ، ولكن لويس رفض . إلا أنه عرض أن يعيد تقريبا كل المدن والاراضي التى كسبتها قواته أثناء الحرب . وفى ٢٠ سبتمبر ١٦٩٧ أنهى صلح ريزويك (بالقرب من لاهاى) « حرب البالاتينات » مع انجلترا وهولندا وأسبانيا . واحتفظت فرنسا بستراسبورج وفرانش كرمتيه ، واستردت بوندشيرى فى الهند ، ونوفاسكوشيا فى أمريكا ، ولكن الرسوم الجمركية الفرنسية خفضت على تجارة هولندة ، وفى ٣٠ أكتوبر وقع صلح تكميلى مع الامبراطورية . وتوقع الامبراطور والملك كلاهما قرب وفاة شارل الثانى ملك أسبانيا . وأدرك كل رجال السياسة فى أوربا تمام الادراك أن ما وقع لم يكن الا مجرد هدنة ، استعدادا لحرب أكبر كانت جائزة المنتصر فيها أغنى امبراطورية فى العالم .

٣ ـ المسألة الاسبانية ١٦٩٨ ـ ١٧٠٠

دنا أجل شارل الثانى دون عقب ، فمن ذا الذى يرث ممتلكاته التى تمتد من الفيليبينات عبر ايطاليا وصقلية الى شمال أمريكا وجنوبها ؟ . لقد طالب بها لويس ، لا باعتباره ابن كبرى بنات فيليب الثالث ملك أسبانيا فحسب ، بل كذلك بمقتضي حق زوجته المتوفاة مارى تريز كبرى بنات فيليب الرابع . والحق كل الحق أن مارى تريز تخلت ، عند زواجها ، عن أى حق لها فى عرش أسبانيا . ولكن هذا التخلى كان مشروطا بان تدفع الحكومة الاسبانية لفرنسا صداقا قدره خمسمائة الف كراون ذهبا . ولكن أسبانيا لم تدفع شيئا من هذا الصداق ، لأنها كانت مفلسة .

وكان للامبراطور ليوبولد مزاعم مضادة : فهو ابن ماريا آنا صغرى بنات فيليب الثالث . وكان قد تزوج فى ١٦٦٦ من مرجريت تريزا

صغرى بنات فيليب الرابع ، ولم تتخل أى من هاتين السيدتين عن حقوقها فى احتمال ارتقاء عرش أسبانيا • ولما كان الاتراك يزعجون ليوبولد دائما بغاراتهم المتكررة ، فانه رغبة منه فى الابقاء على السلام مع فرنسا ، عمد الى حل وسط بالنسبة لمطالبه ، بتوقيع معاهدة سرية مع لويس الرابع عشر ، (فى ١٩ يناير ١٦٦٨) ، نص فيها على التقسيم النهائى للامبراطورية الاسبانية • ويقول مؤرخ انجليزى انه بمقتضي هذه المعاهدة « سلم فعلا بقوة الحجة التى تذرع بها لويس الرابع عشر ببطلان تخلى ملكة فرنسا عن حقوقها فى عرش أسبانيا (٣٧) » ولما تزوج ليوبولد للمرة الثانية ، وأنجب له هذا الزواج ابنا ثانيا ، حدد مطالبه ، ولكنه عرض أن يتنازل عنها للارشيدوق كارل الجديد •

ونظرت انجلترا والمقاطعات المتحدة والولايات الألمانية بعين الفزع الى احتمال أن تؤول مملكة أسبانيا المترامية الأطراف الى فرنسا أو الى النمسا ، وفى كلتا الحالتين اخلال بتوازن القوى ، فلو أن لويس ربح فى هذه الجولة لسيطر على أوربا وعرض البروتستانتية للخطر ، ولو أنها كانت من نصيب ليوبولد ، لهدد الامبراطور ، بحكم استيلائه على الأراضي الوطيئة الاسبانية ، جمهورية هولندة ، وزعزع استقلال الولايات الالمانية • وتدخلت المصالح الاقتصادية الى جانب مصالح الأسرات الحاكمة : فالمصدرون الانجليز والهولنديون كانوا يزودون معظم أسواق أسبانيا ومستعمراتها بالمنتجات الصناعية ، ويحصلون منها فى مقابل ذلك على كميات هائلةمن الذهب والفضة ، فكانوا يكرهون أن تصبح هذه التجارة احتكارا لفرنسا • وذكرت الحكومة البريطانية فى ١٧١٦ « أن الاحتفاظ بالتجارة بين مملكة بريطانيا العظمى وأسبانيا كان من أهم الدوافع التى حفزت ملكينا السابقين الى دخول الحرب الأخيرة الطويلة الأجل الباهظة التكاليف (٣٨) » •

ورغبة من وليم الثالث فى ارضاء التجار فى موطنه الاول وفى البلاد التى آلت اليه ، وفى المحافظة على توازن القوى فى القارة ، اقترح على لويس أن تتخلى فرنسا عن دعواها ، وتتفق مع انجلترا على ترك أسبانيا الأولى » • ورفض ليوبولد هذا المشروع غاضبا • وأملا فى صون أمير بافاريا الناخب ، حفيد ليوبولد ، وعلى أن يحصل الدوفين ولى عهد فرنسا على ثغور تسكانيا وايطاليا جنوبى الولايات البابوية • على حين

يمكن التسكين من روع الأرشيدوق كارل وارضاؤه بدوقية ميلان • وقبل لويس الاقتراح ، ووقع فى ١١ أكتوبر ١٦٩٨ مع وليم « معاهدة تقسيم أسبانيا الأولى » • ورفض ليوبولد هذا المشروع غاضبا • وأملا فى صون الامبراطورية الأسبانية من هذه التجزئة والتفتيت ، أعد شارل الثانى فى ١٤ نوفمبر ١٦٩٨ وصيته التى جعل أمير بافاريا الناخب بمقتضاها وريثه الوحيد • ولكن موت الأمير فى ٥ فبراير أحدث ارتباكا وتعقيدا فى الموقف •

وعرض لويس على وليم تقسيما جديدا : يحصل ولى عهد فرنسا بمقتضاه على ثغور تسكانيا ، وايطاليا جنوبى الولايات البابوية ، ودوقية اللورين ، ويعوض دوق اللورين بميلان ، ويؤول باقى الامبراطورية الأسبانية ، بما فى ذلك أمريكا والأراضي الوطيئة الأسبانية ، الى الأرشيدوق كارل ، ووقع لويس ووليم اتفاقية التقسيم الثانية فى ١١ يونيه ١٦٩٩ ، ووافقت عليها المقاطعات المتحدة • ولكن شارل الثانى احتج على أى تفتيت لمتلكاته ، كما ان الامبراطور ، أملا منه فى الحصول على كل شيء لابنه ، أيد موقف أسبانيا ورفض الموافقة على التقسيم ، على أن شارل ، باعتباره من آل هبسبرج ، كان ميالا الى ترك كل شيء للأرشيدوق ، وبوصفه أسبانيا ، على أية حال ، كان يكره النمساويين ، وباعتباره لاتينيا كان يؤثر الفرنسيين ، ومذ كان شارل كاثوليكيا غيورا ، فانه التمس النصح والمشورة من البابا • فأجاب انوسنت الثانى عشر فى ٢٧ سبتمبر ١٧٠٠ بأن خير طريقة هى التوصية بكل الامبراطورية الأسبانية لأمير بوربونى شريطة تخليه عن أى حق فى عرش فرنسا ، وبذلك تحتفظ أسبانيا بوحدتها •وواضح أن الدبلوماسيين الفرنسيين كانوا يفوقون النمساويين حيلة ودهاء ، فى مدريد وفى روما على حد سواء • ونفر الرأى العام فى أسبانيا من غطرسة مليكتهم الألمانية ، فوافق على مشروع البابا ، وذكر السفير الانجليزى فى مدريد « ان الاتجاه العام فرنسي تماما (٣٩) » • وفى أول أكتوبر وقع شارل الوصية المشئومة ، التى أوصي فيها بكل أسبانيا وممتلكاتها لفيليب ذى السبعة عشر ربيعا ، دوق أنجو ، الابن الثانى للدوفين ، شريطة ألا يجتمع تاجا فرنسا وأسبانيا لملك واحد ، وقضي شارل نحبه فى أول نوفمبر •

ولما ترامت أنباء هذه الوصية الى باريس ، سر بها لويس ، ولكنه

كان مترددا • فقد أدرك أن انتقال أسبانيا من أيدى آل هبسبرج الى أسرة البوربون ، لابد أن يلقى معارضة شديدة من الامبراطور ، وأن انجلترا وهولنده لابد أن تنضما الى صف المعارضة • وأثنى أحد المؤرخين الألمان على هذه الالتفاته من جانب لويس نحو الاهداف السلمية :

> قد لا يكون من الانصاف القول بأن لويس الرابع عقد العزم منذ البداية على نقض معاهدة التقسيم ، بمجرد الحصول على وصية ملائمة لأسرته ، وحتى وهو على يقين من مثل هذه الوصية ، وكان شارل لا يزال على قيد الحياة ، أمر لويس سفيره فى هولنده ، أن يؤكد لحاكمها أنه يعتزم التمسك بالتزاماته ، ولا يقبل أية عروض تقدم له • وبالاضافة الى هذا ، واصل مساعيه للحصول على انضمام بلاط فيينا الى معاهدة التقسيم (٤٠) •

وفى ٦ أكتوبر أرسل لويس نداءا عاجلا الى الامبراطور ليقبل معاهدة التقسيم الثانية (٤١) • ورفض ليوبولد • ومن ثم اعتبر لويس أن المعاهدة لاغية •

وفور وفاة شارل ، أوفد مجلس الوصاية الأسبانى الى باريس رسولا ليبلغ الملك لويس أن حفيده سيكون ملكا على أسبانيا بمجرد قدومه وتأديته اليمين بمراعاة قوانين المملكة • وصدرت التعليمات الى السفير الأسبانى فى باريس بأنه فى حالة أى رفض من جانب فرنسا ، عليه أن يأمر الرسول بالاسراع الى فيينا ليقدم نفس العرض الى الأرشيدوق (٤٢) • وينبغى ألا تجزأ الامبراطورية الأسبانية على أية حال • وفى ٩ نوفمبر دعا لويس الأمير ولى العهد ، ومستشاره بونتشارتران ودوق دى بوفيلييه ومركيز دى تورسي وزير الخارجية الى اجتماع فى جناح مدام دى مينتنون ، وسألهم الرأى والمشورة • ورأى بوفيلييه أن يرفض العرض الأسبانى ، لأنه يؤدى قطعا الى الحرب مع الامبراطورية وانجلترا والمقاطعات المتحدة ، وذكر الملك بأن فرنسا ليست فى ظروف تهيىء لها مواجهة مثل هذا الائتلاف ، أما تورسي فقد دافع عن فكرة القبول ، حيث اعتقد بأن الحرب لا محالة واقعة على

أية حال ، ولابد أن الامبراطور ليوبولد سيعارض معاهدة التقسيم والوصية كلتيهما . هذا فضلا عن أنه اذا رفض الملك لويس العرض الاسبانى ، فانه من المؤكد أن يرحب به الامبراطور ، وتطوق فرنسا من جديد بنفس النطاق الذى كان مضروبا حولها ـ أسبانيا ، شمال ايطاليا ، النمسا ، الأراضي الوطيئة الأسبانية والذى كلف فرنسا طيلة المائتى عام الأخيرة كثيرا من الدماء لتحطيمه . خير لنا أن ندخل فى حرب بسبب عادل ـ الوصية ـ من أن نحاول فرض تقسيم أسبانيا بالقوة ضد رغبة حكومتها وشعبها (٤٣) .

وبعد ثلاثة أيام قضوها فى مزيد من المشاورات والمداولات ، أعلن لويس الى المبعوثين قبوله الوصية . وفى ١٦ نوفمبر ١٧٠٠ قدم دوق أنجو الى الحاشية المجتمعة فى فرساى قائلا : « أيها السادة ، انكم ترون هنا ملك أسبانيا . ان النسب الذى تحدر منه دعاه الى حمل ذاك التاج ، بهذا أمر الملك الراحل فى وصيته ، وهذا ما رغبت فيه الامة الأسبانية بأسرها ، وتوسلت الىّ توسلا جديا أن أقبله . وتلك ارادة الله ، حققها فى غبطة وسرور ، ثم أضاف موجها الحديث الى الملك الشاب « كن اسبانيا » صالحا ـ فهذا هو الآن واجبك الأول ، ولكن تذكر أنك ولدت فرنسيا ، وحافظ على الوحدة بين الأمتين ، فهذا هو الطريق لاسعادهما ، وللمحافظة على السلام فى أوربا (٤٤) » ونادى مجلس الوصاية الاسبانى بفيليب ملكا فى مدريد ، وأسرعت كل قطاعات أسبانيا وممتلكاتها باعلان موافقتها ، واعترفت الحكومات ، الواحدة تلو الأخرى ، بالملك الجديد : سافوى ، الدنمرك ، البرتغال ، المقاطعات المتحدة ، انجلترا ، وعدة ولايات ايطالية وألمانية ، بل ان ناخب بافاريا الذى ظن أن الامبراطور دس السم لابنه ـ كان من أول الأمراء الذين قدموا اعترافهم . وبدا أن الأزمة قد تم التغلب عليها ، وان العداوة التى استعر أوارها طيلة قرن من الزمان بين فرنسا وأسبانيا قد خمدت بطريقة سلمية ، وجثا السفير الأسبانى فى فرساى بين يدى مليكه الجديد اجلالا وولاء ، ونطق بعبارته المشهورة « لا برانس بعد اليوم (٤٥) » .

٤ ـ الحلف الأعظم : ١٧٠١ ـ ١٧٠٢

وكتب لورد تشستر فيلد « ان أسبانيا استقبلت فى هدوء وابتهاج فيليب الخامس الذى استهل عهد البوربون الاسبان ، واعترفت به ملكا

معظم الدول التى انضمت فيما بعد فى تحالف لخلعه (٤٦) » ولكن الامبرامور ليوبولد أحس بأن هذا الاتحاد الفعلى بين فرنسا وأسبانيا ، لابد أن يكون ، اذا تهيأت له أسباب البقاء والاستمرار ، كارثة على أسرة هبسبرج التى ألفت منذ أمد طويل أن تحكم الامبراطورية الرومانيـــة المقدسة والامبراطورية الأسبانية كلتيهما • وعكس الكتـاب اســتياءه فأهاجو الرأى العام فى النمسا وعبروا عنه ، مرددين أن شارل الثانى لم يكن فى كامل قواه العقلية حين أوصي باسبانيا لعدوتها القديمـــة ، وزعموا أن تشريح جثة الملك أظهر حقا أن قلبه ومخه كانا مصابين بشكل خطير ، ومن ثم تكون وصيته باطلة لاغية ، وتكون ممتلكات اسبانيا تابعة للامبراطور ليوبولد ، بمقتضي حقوق أمه وزوجته التى لم يحدث أى تخل أو تنازل عنها • واستحث ليوبولد حليفيه السابقين هولنـــده وانجلترا الى انكار أو سحب اعترافهما بفيليب الخامس • حتى ولو كان هذا يعنى حربا •

وكان زعيم المقاطعات المتحدة فى هذا الوقت أنطونيوس هينسيوس الذى كان قد اختير حاكما بعد رحيل وليم الى انجلترا ، وكان فى سابق أيامه مبعوثا هولنديا الى فرنسا ، وهدده لوفوا بالقاء القبض عليه ، خرقا للحصانة الدبلوماسية ، ولم ينس قط هذه الاساءة ، وأقام الآن ، وقـد بلغ التاسعة والخمسين ، فى دار متواضعة فى لاهاى ، وأحب المكتب ، وسار يوميا على قدميه الى مكتبه ، واشتغل عشر ساعات فى اليـوم ، وكان بمثابة تحد حى صارخ من جانب البساطة البرجوازية والحكومية الجمهورية للأرستقراطيين المترفين والملوك المستبدين • وفى نوفمـــبر ١٧٠٠ ، وبتوجيه من الجمعية الوطنية الهولندية ، أرسل أنطونيوس هذا الى الملك لويس الرابع عشر مذكرة يرجوه فيها رفض وصية شارل الثانى باعتبارها ضارة أبلغ الضرر بالامبراطور ، والعودة الى سياسة التقسيم• وفى ٤ ديسمبر ١٧٠٠ أجاب لويس بأن الذى جعل من قبوله الوصية أمرا ضروريا حتميا هو تكرار رفض الامبراطور لأى مشروع للتقسيم ، وتاكد فرنسا من أن الامبراطور سيقبل العرض الأسبانى اذا هى رفضته •

وزادت تصرفات لويس من خوف أوربا من قوة فرنسا • ففى أول فبراير ١٧٠١ حمل برلمان باريس على تسجيل مرسوم ملكى ينص على المحافظة على الحقوق التى يمكن ان تنشا لفيليب وأعقابه فى تاج فرنسا •

وهذا لا يعنى بالضرورة أن لويس تطلع الى وحدة فرنسا وأسبانيا تحت حكم ملك واحد ، وربما قصد به تأمين نظام لارتقاء عرش فرنسا فى حالة وفاة الورثة السابقين ، ففي مثل الضرورة الطارئة يمكن لفيليب أن يتخلى عن تاج أسبانيا ليرتقى العرش فى وطنه الأول ، وبذلك يستمر التاج فى أسرة البوربون دون انقطاع • ولكن اجراء آخر اتخذه الملك برر أن يفسر عمله تفسيرا غير ودى • ذلك أنه كانت هناك معاهدة مع أسبانيا تثبت حق الهولنديين فى حماية هولندة ضد الغزو ، بالاحتفاظ بحاميات مسلحة فى بعض « مدن الحدود » فى الأراضي الوطيئة الاسبانية • وفى فبراير ، بناء على تفاهم بين لويس وناخب بافاريا الذى تولى حكم الاراضي الوطيئة الاسبانية آنذاك ، دخلت القوات الفرنسية مدن الحدود هذه ، وأمرت الحاميات الهولندية بمغادرتها • وأبلغ السفير الأسبانى فى لاهـــاى الجمعية الوطنية بأن هذا العمل تم بناء على رغبة الحكومة الأسبانية • واحتجت الجمعية الوطنية ثم استسلمت ، ولكن هينسيوس اتفق مع وليم الثالث على ضرورة تجديد الحلف الأعظم ضد فرنسا •

ان وليم ارتكز فى موقفه على أن معاهدة التقسيم الثانية كانت اتفاقا بينه وبين لويس ، وأنها ظلت سارية المفعول سواء وقعها أو لم يوقعها ليوبولد ، وأن قبول فرنسا للوصية الأسبانية كان نقضا لهـــذا الميثاق القانونى المقدس • وكان البرلمان على أية حال يكره استئناف النزاع الباهظ التكاليف مع فرنسا • وعندما أبلغت الحكومة الفرنسية انجلترا بنبأ ارتقاء فيليب الخامس عرش أسبانيا ، راض وليم نفسه على تهنئة « أخيه العزيز ملك أسبانيا بهذه المناسبة السعيدة ، مناسبة ارتقائه العرش (٤٧) » • وبهذا قدم اعترافا رسميا بنظـــام الحـــكم الجديد (١٧ أبريل ١٧٠١ (٤٨)) • ولكن عندما تجلت النتائج الخطيرة للاتحاد الفرنسي الاسبانى للعيان بشكل أوضح ، حيث أن احتلال القوات الفرنسية للفلاندرز جعلت لويس قاب قوسين أو أدنى من هولنده ، وأن امتلاكه لثغر أنتورب مكنه من التحكم فى التجـــارة الانجليزية التى تستخدم هذا الثغر ــ فان الانجليز بدأوا يدركون أن المشـــكلة لم تكن مجرد مشكلة بين البوربون وآل هبسبرج ، ولا هى مشكلة كاثوليكية تستعيد نشاطها وبروتستانتية يتهددها الخطر ، ولكنها قضـية الصراع بين انجلترا وفرنسا حول السيادة على البحـار ، والســيطرة عـلى المستعمرات الاوربية وعلى تجارة العالم ، وفى يونيه ١٧٠١ ، ودون

اعلان الحرب ، تعهد البرلمان بتاييد وليم فى أية أحلاف قد يدخل فيها بهدف الحد من سيطرة فرنسا المتزايدة • وتحقيقا لهذا الهدف أقر تجنيد ثلاثين ألفا من جنود البحر واعتمد مبلغ مليونين وسبعمائة الف جنيه • واستجابة لنداء من الجمعية الوطنية الهولندية أمر وليم عشرين سفينة وعشرة آلاف جندى بالابحار الى هولنده • وفى يوليه عبر هو نفسه البحر الى لاهاى •

وكان الامبراطور الذى يطالب باراضي الامبراطورية الاسبانية بأسرها ، بالفعل فى حرب • وفى مايو ١٧٠١ أرسل جيشا مكونا من ستة آلاف من الفرسان وستة عشر ألفا من المشاة للاستيلاء على ممتلكات أسبانيا فى شمال ايطاليا ، وعهد بقيادة هذا الجيش الى أمير شاب ، قدر له أن ينافس مارلبرو نفسه باعتباره قائدا ـ هو يوجين سافوى • وكان جده شارل أمانويل دوق سافوى ، أما والده الأمير يوجين موريس فقد استقر به المقام فى فرنسا بلقب كونت دى سواسون • أما والدته فهى أولمب مانسينى احدى بنات أخى مازاران الفاتنات • وطلب يوجين نفسه فى ١٦٨٣ ، وهو فى سن العشرين ، من لويس الرابع عشر أن يوليه قيادة فوج من الجنود ، فأبى عليه ذلك نظرا لصغر سنه ، فهجر فرنسا والتحق بخدمة الامبراطور ، واشترك مع سوبسكى فى تخليص فيينا وتعقب الأتراك ، وجرح فى الاستيلاء على بودا ، وجرح ثانية فى حصار بلجراد ، وقاد القوات الامبراطورية الى الانتصار الحاسم على الاتراك فى سنتا ١٦٩٧ ، وتحلى يوجين بكل المزايا اللهم الا جمال الوجه والجسم • ووصفه فرنسي عدو له بأنه « هذا الرجل القبيح الضئيل الجسم الذى ينقلب أنفه فوق شفة عالية قصيرة الى حد أنها لا تغطى أسنانه (٤٩) » ، على حين تبين فيه فولتير « صفات البطل فى الحرب، ومناقب الرجل العظيم زمن السلم ، وذهنا مشربا بروح العدل والانصاف والاعتداد بالنفس ، وشجاعة لا تلين ولا تهن فى قيادة الجيوش (٥٠)» • والآن وهو فى الثامنة والثلاثين قاد قواته فوق الألب ، وتفوق على الكتائب الفرنسية هناك ، ومع توالى انتصاراته على كاتينا وفيلروا ، كسب الامبراطور كل دوقية مانتوا تقريبا (سبتمبر ١٧٠١) ، قبل اعلان حرب الوراثة الاسبانية بزمن طويل •

وفى الوقت عينه كانت الدبلوماسية قد مهدت لعشر سنين من

المذابح • ففى اغسطس منحت اسبانيا فرنسا « عقدا » يدر ربحا وفيرا، لتزويد المستعمرات الأسبانية فى إمريكا بالعبيد • وواضح أن فرنسا قصدت أن تستخدم نفوذها الطاغى فى أسبانيا ، للاستيلاء على تجارة ممتلكاتها فى قارات ثلاث • وفى ٧ سبتمبر وقع مندوبو انجلترا والمقاطعات المتحدة والامبراطورية معاهدة لاهاى بتكوين حلف أعظم ثان • ونصت المادة الثانية منها على أنه من الضرورى لاقرار السلام فى أوربا أن تراعى حقوق الامبراطور فى الوراثة الاسبانية ، وأن تكون انجلترا والمقاطعات المتحدة آمنتين فى ممتلكاتهما وفى تجولهما فى البحار وفى تجارتهما ، ووعدت المعاهدة الامبراطور بمتتلكات أسبانيا فى شمال ايطاليا والأراضي الوطيئة ، ولكنها تركت الباب مفتوحا أمام احتمال الاعتراف بفيليب الخامس ملكا على أسبانيا ، وتعهدت الأطراف المتعاقدة بعدم القيام بأية مفاوضات منفصلة ، أو توقيع أى صلح منفرد، والحيلولة دون توحيد تاجى فرنسا وأسبانيا • واعتراض طريق التجارة الفرنسية مع المستعمرات الأسبانية والدفاع عن أية فتوحات تقوم بها انجلترا والمقاطعات المتحدة فى الانديز الاسبانية والمحافظة عليها (٥١)• ومنحت فرنسا مهلة مدتها شهران للموافقة على هذه الشروط ، فاذا لم تتم الموافقة ، كان للدول الموقعة أن تعلن الحرب •

وقابل لويس هذا التحدى بكبرياء شديدة متميزة ، فأعلن أنه مرتبط رباطا شرفيا بالدفاع عن وصية شارل الثانى وتصميم الشعب الاسبانى على عدم تمزيق امبراطوريته ، ولثقته التامة فى قوة قضيته وعدالتها ، ظهر الى جانب سرير جيمس الثانى الذى كان يعانى سكرات الموت ، وواسي الملك المحتضر بوعده أنه سيعترف بجيمس الثالث ملكا على انجلترا ويسانده • ولما قضي الوالد نحبه حافظ لويس على عهده ، ولسنا ندرى اذا كان هذا « عملا جليلا يتسم بالشهامة » ، (كما قال عنه مؤرخ انجليزى شهم (٥٢)) أو أنه استسلام لتوسلات الارملة الباكية (٥٣) ، أو أنه خطة عسكرية لتقسيم انجلترا الى معسكرين : فريق يناصر وليم ، وفريق يناصر جيمس ، ويدعو الى عودة آل ستيوارت الى العرش من جديد • وعلى أية حال كانت حرب الوراثة الاسبانية حربا للوراثة الانجليزية أيضا ، بل حرب الكيان الانجليزى كله ، فان عودة ملك من أسرة ستيوارت قد يعنى استئناف المحاولة لتحويل انجلترا الى

الكاثوليكية ، وعلى الرغم من أن فرنسا أحست بأن تصرف الحلفـــاء نقض الاعتراف الذى كانت قد أعلنته كل دولة بفيليب الخامس ملكا على أسبانيا • فان معظم انجلترا أحست بأن لويس قد نقض معاهدة رزويك التى كان قد اعترف فيها بوليم الثالث ملكا على انجلترا ، واســتنكرت الاعتراف بجيمس الثالث على أنه تدخل وقح فى شئون انجلترا • وأضيفت الى شروط الحلف الأعظم فقرة تلزم الموقعين بألا يعقدوا صـــلحا مع فرنسا ، حتى يتلقى وليم ترضية عن الاساءة التى ألحقهـا به تصرف لويس • وفى يناير ١٧٠٢ جرد البرلمان جيمس الثالث من حقوقه المدنية - أى أعلن أنه خائن خارج على القـــانون • وفى نفس الوقت أقـــر باغلبية صوت واحد ، « قانون القسم » الذى يتطلب من كل انجليزى أن يبرأ من « المطالب بالعرش » ويقســـم يمـــين الولاء لوليم الثالث وورثته • وفى ٨ مارس ١٧٠٢ توفى وليم الثالث فى ســـن الثانيـــة والخمسين • فى وقت مبكر جدا لم يستطع أن يتبين فيه أنه قام بتوثيق عرى تحالف قد يحدد خريطة أوربا لمدة نصف قرن • وفى ١٥ مايو أعلن الامبراطور والمقاطعات المتحدة وبرلمان انجلترا الحرب على فرنسا فى وقت واحد •

٥ ـ حرب الوراثة الأسبانية ١٧٠٢ ـ ١٧١٣

كانت كل أوربا غربى بولنـــده والامبراطورية العثمانيـــة ، من الناحية العملية ، مشغولة بهذه الحرب • وانضم الى التحالف الدنمرك وبروسيا وهانوفر وأسقفية مونستر ، وناخبا مينز والبالاتينات وبعض الولايات الألمانية الصغيرة • وانضم الى هـؤلاء فى ١٧٠٣ ســـــافوى والبرتغال ، وحشدوا جميعا ٢٥٠ ألف جندى ، وجمعوا قوة بحرية تفوق كثيرا القوة البحرية الفرنسية عددا وعتادا وقيادة • وكان لفرنسا آنئذ مائتا ألف جندى ، ولكن هذه القوات كانت موزعة على جبهات مختلفة فى اقليم الراين وايطاليا وأسبانيا • وكان الحلفاء الوحيدون لها أسبانيا وبافاريا وكولون ، ثم سافوى لمدة عام واحد • وكانت أسـبانيا عبئـــا عليها ، تريد من الجيوش الفرنســية أن تدافـــع عنهـــا ، كما كانت المستعمرات الأسبانية تحت رحمة الاساطيل الهولندية والانجليزية •

ويجدر بنا ألا نضل فى متاهات اللعبة الملكية ، الشطرنج البشرى،

التى أعقبت ذلك ، وكانت لعبة دامية الى حد لم يسبق له مثيل تقريبا ، والآن جاءت حملات مارلبرو ويوجين سافوى البارعة المثيرة الملطخة بالدماء • وربما لم تجتمع منذ عهد قيصر عبقرية الحرب وفن الدبلوماسية مثل ما اجتمعا فى مارلبرو : كان بارعا فى استراتيجية تخطيط العمليات وتحريك الجيوش ، وفى أساليب استخدام المشاة والخيالة والمدفعية ، مع سرعة فى تقدير الموقف واتخاذ القرار ، وفق متطلبات المعركة ، ومع ذلك فهو أيضا صبور لبق فى التعامل مع الحكومات من ورائه ، والشخصيات من حوله ، حتى مع الاعداء الذين اعتبروه رجل دولة يدرك الحقائق ، ذا وزن وقوة ونفوذ • وكان فى بعض الأحيان قاسيا لا يرحم ، وفى أغلب الاحيان مجرداً من المبادىء الخلقية والانسانية • وسفك من دماء جنوده أى قدر لازم لتحقيق النجاح ، واتصل بجيمس الثانى وجيمس الثالث ليضمن لنفسه نصيرا باسما مشرقا اذا عاد آل ستيوارت الى الحكم • ولكنه كان منظم وصانع النصر •

وحيث أدرك لويس الرابع عشر أن كل عظمة عصره معلقة فى كفة الميزان ، وأن النزاع حول أسبانيا بات صراعا من أجل قارات ، فانه هاب بفرنسا أن تبعث اليه بأبنائها وذهبها • وما وافى عام ١٧٠٤ حتى كان لديه ٤٥٠ ألف رجل مسلحين ــ قدر ما لدى أعدائه مجتمعين (٥٤)• وأملا منه فى التبكير بحسم هذا الصراع الباهظ التكاليف ، أصدر أوامره الى قواته الرئيسية بالتقدم عبر بافاريا الصديقة ، ومهاجمة قلعة العدو الأخيرة ، ألا وهى فيينا التى عجزت الحشود التركية نفسها عن الاستيلاء عليها • وانشغلت القوات الامبراطورية فى الشرق بعصيان مسلح وقع فى المجر ، وتركت عاصمتها مجردة من وسائل الدفاع تقريبا • وعلى حين كان مفروضا أن يضيق جيش فرنسي بقيادة فيلروا الخناق على مارلبرو فى الأراضي الوطيئة ، فان القوات الفرنسية بقيادة مارسان وتللارد انضمت الى قوات ناخب بافاريا ، وأسرعت فى التقدم الى النمسا • ومرة أخرى هرب الامبراطور من فيينا ، كما حدث فى ١٦٨٣ ، ادراكا منه بأن وقوعه فى أيدى الاعداء لابد أن يكون كارثة على موقف الحلفاء•

وفى هذه الأزمة ، وعلى الرغم من توسلات الجمعية الوطنية الهولندية ، ولكن بموافقة سرية من جانب هينسيوس ، قرر مارلبرو أن يغامر بوقوع هولندة فى يد فيلروا ، ويجد السير ليلا ونهارا من بحر

الشمال الى الدانوب (مايو ـ يونيه ١٧٠٤) لينقذ فيينا . وتظاهر بأنه يسعى لعبور الموزل ، فسار جنوبا فى محاذاة النهر ، مغـريا فيلروا بحركة موازية على الجانب الآخر . وفجاة عند كوبلنز انعطف شرقا وعبر الراين على جسر عائم ، وسار الى مينز ، وعبر المين الى هيدلبرج، وعبر نهر نكر الى راستاد ، فأحدث الآن نقاط اتصال هامة مع الامدادات القادمة من هولنده ، ومع جيش امبراطورى بقيادة يوجين سافوى ، ومع جيش آخر بقيادة الحاكم العسكرى لمنطقة بادن بادن ـ لويس وليم الأول ـ ودهش الفرنسيون والبافاريون ليجدوا مارلبرو بعيدا عن المواقع التى كان من المتوقع أن يطبق عليه فيلروا فيها . وجمع مارسان وتللارد وناخب بافاريا ، ٣٥ ألفا من المشاة و ١٨ ألفا من الفرسان بين لوتزنجين وبلنهيم، على الضفة اليسرى للدانوب . وهناك فى ١٣ أغسطس ١٧٠٤ اشتبك معهم مارلبرو ويوجين بثلاثة وثلاثين ألفا من المشاة وتسعة وعشرين ألفا من الخيالة فيما تحاول فرنسا أن تنسي فيه معركة هوستاد وما تحتفـــل به انجلترا باعتباره النصر فى بلنهيم . واخترقت خيالة مارلبرو المتفوقة قلب القوات الفرنسية وساقت جيش تللارد المنهزم الى بلنهيم ، حيث استسلم الاثنى عشر ألفا الباقون منه على قيد الحياة ، وأسر تللارد نفسه . ثم أسرع فرسان مارلبرو لنجدة يوجين ، وكان فى مأزق ، الى اليمـــين ، وعاونوه حتى أجبر مارسان على التقهقر بانتظام ، وكانت الخسارة فى الأرواح جسيمة ، اثنى عشر ألفا من الحلفاء ، و ١٤ ألفا من الفرنسيين والبافاريين . وحطم استسلام سبع وعشرين كتيبة من المشاة واثنتى عشرة سرية من الخيالة سمعة القوات المسلحة الفرنسية . وفر ناخب بافاريا الى بروكسل . واحتل الجيش الامبراطورى بافاريا ، وأخلى نحو ثلثمائة ميل مربع تقريبا من الأرض من القوات الفرنسية ، وعاد ليوبولد فى أمان الى عاصمته .

وفى ٤ أغسطس سجل اسطول انجليزى هولندى يوما مشهودا آخر فى التاريخ باحتلاله صخرة جبل طارق المقفرة . وقد حولها الانجليز الى قلعة ضمنت لهم السيادة على البحر المتوسط لمدة قرنين من الزمان واستمرت الحرب تسع سنوات أخرى ، دون أن يفطن أحـــد الى أن هذين الانتصارين قد حددا مصيرها . وفى ٩ أكتوبر ١٧٠٥ استولى

أسطول انجليزى علي برشلونة ، وساند أحد جيوش الحلفاء ثورة قامت في قطالونيا ضد فيليب الخامس ، وأقام الارشـيدوق كارل فى مدريد ملكا تحت اسم شارل الثالث (٢٥ يونيه ١٧٠٦) ٠ ولكن منظر النمساويين والانجليز يحكمون البلاد أيقظ الاسبان من سـباتهم الروحى ، بل ان رجال الدين أنفسهم حرضوهم على المقاومة ٠ وسلح الفلاحون أنفسهم بأحسن ما وصلت اليه أيديهم ، وقطعوا خط مواصلات الحلفـاء بين برشلونة ومدرية ٠ وقاد دوق برويك الانجليزى ، وجيمس فتز جيمس الابن غير الشرعى لجيمس الثانى قوة فرنسية اسبانية من الغـرب ٠ استردت مدريد لفيليب الخامس (٢٢ سبتمبر) وردت الارشيدوق ومن معه من المهرطقين الانجليز الى قاطالونيا ٠

وفى تلك الاثناء ، وبعـد أن تغلب مارلبرو على بعض العقبـات السياسية فى لندن ولاهاى ، جمع هذا القائد جيشا قوامه ستون ألفا من الانجليز والهولنديين والدنمركيين ، وتقدم به نحو الأراضي الوطيئة الاسبانية ، وفى ٢٣ مايو ١٧٠٦ التقى بالجيش الفرنسي الرئيسي المؤلف من ٥٨ ألف جندى بقيادة فيلروا عند راميه بالقرب من نامور ٠ وفى اشتداد وطيس المعركة ، ناسيا أنه يجدر بالقواد أن يموتوا فى فراشهم، اندفع الى مقدمة الصفوف ، فأسقط عن جواده ٠ وبينما كان الضابط المرافق له يعاونه على امتطاء ظهر الجواد ثانية ، اخترقت رأس الضابط قذيفة ، واسترد مالبرو عافيته وأعاد تنظيم قواته ، وقادها الى نصر دام آخر ٠ وبلغت الخسائر فى جيشه خمسة آلاف رجـل ، وفى جيش الفرنسيين خمسة عشر ألفا ٠ وتقدم وسط مقاومة لا تذكر للاستيلاء على أنتورب وبروجز وأوستند ٠ وهناك توفر له خط مواصلات مباشر مع انجلترا ، وكان على مسافة عشرين ميلا فقط من فرنسا ٠ وآوى فيلروا، وكان آنذاك فى الثانية والستين ، الى ضيعته محزونا ، ولكن دون تأنيب من الملك الذى قال له فى أسي وأسـف « لن يواتينـا الحظ بعـد ذلك (٥٥) » ٠

وفى كل مكان ، باسـتثناء أسـبانيا ، كان الفرنسـيون الآن فى خطر ، أو كانوا يتقهقرون ٠ وفى فيينا خلف جوزيف الأول ، وكان فى السابعة والعشرين ، أباه على عرش الامبراطورية (١٧٠٥) ، وشـد من أزر قواده بدرجة كبيرة ٠ ورد يوجين سافوى الفرنسيين عن تورين

(١٧٠٦) وعن ايطاليا (١٧٠٧) ٠ وبمقتضي اتفاق ميـــلان اصبحت دوقيتا ميلان ومانتوا جزءا من امبراطورية النمسا ، وانتهى حـــكم « جونزاجات مانتوا » الذى كان قد بدأ ١٣٢٨ ٠ أما مملكة نابلى التى كان يحكمها نائب الملك الاسبانى منذ عهد طويل ، فقد ارتمت بدورها فى أحضان النمسا ، ولو أنها استمرت من الوجهـة الشـــكلية ولاية بابوية ، واحتفظت الولايات البابوية بأوضاعها باذن من الامبراطور الذى اخترقتها قواته الالمانية ضـــد ارادة البـــابا الذى لا حـــول له ولا قوة (٥٦) ٠ واحتفظت فينيسيا وتسكانيا باستقلال مزعزع الاركان٠

وكان لويس الرابع عشر رجلا قد تغير ٠ وكان غرور السلطان قد زال عنه تقريبا ، ولكنه احتفظ بالوقار الهادىء لدولته ٠ وفى ١٧٠٦ عرض على الحلفاء شروطا للصلح كان يمكن أن يتقبـلوها فرحـــين مسرورين قبل خمس سنين ، وبمقتضاها تترك أسبانيا للأرشـــيدوق كارل ، ويكتفى فيليب بميلان ونابلى وصقلية ، وتعاد مد الحـــدود والحصون الى السيطرة الهولندية فى الأراضي الوطيئة الاسبانية ٠ وكان الهولنديون ميالين الى التفاوض ، ولكن الانجليز والامبراطور أبوا ٠ وتولى لويس السأم والضجر ، واتجه الى تجنيد جيوش جديدة وفرض ضرائب جديدة ، حتى التعميد والزيجات لابد أن يدفع عنها ضريبة حتى تصبح قانونية ٠ فلجأ الفرنسيون الذين أضناهم الفقر الى تعميد أبنائهم والى الزواج دون طقوس دينية ، ولو أن نتاج مثل هذا القران دمغ بأنه غير شرعى من الوجهة الرسمية (٥٧) ٠

وقامت الثورة فى كاهور ، وفى كرسي ، وفى بريجور ٠ واستولت جموع الفلاحين على الحكم فى المدن ، وعلى قصـــور الاقطاعيين ٠ وصاحت الهياكل العظمية الحية أى لاهالى الذين يتضورون من الجوع ، عند أبواب قصر فرســـاى ، مطالبين بالخبز ، فصـــدهم الحـــرس السويسرى ٠ وظهرت اللافتات على الجدران فى باريس منذرة لويس بأنه لا يزال فى فرنسا رجـــال يريدون قتـــل الملك (٥٨) ٠ ومنعت الضرائب الجديدة ٠

وفى أوائل ١٧٠٧ نشر مركيز دى فوبان الذى كانت هندســـته العسكرية عنصرا أساسيا فى الانصارات الفرنسية فى الجيـل الماضي ،

نشر وهو فى الرابعة والسبعين ، « اقتراحا بضريبة أعدل » • وصفه المركيز شقاء فرنسا وبؤسها : « ان عشر السكان تقريبا انحطوا الى درجة التسول ، أما غالبية التسعة الأعشار الباقية منهم فهم أقرب الى تلقى الصدقات منهم الى بذلها •• •• يقينا ان السوء قد بلغ أقصي مداه• فاذا لم يتخذ أى علاج فلسوف يقع الشعب فى براثن فقـــر لافكاك له منها أبدا » • وذكر الملك بأن « الطبقة الدنيا من الشعب هى التى تثرى الملك ومملكته بكدها وجدها ، واسهاماتها فى الخزانة الملكية » ومع ذلك فان « هذه الطبقة ، نتيجة لمطالب الحرب وفرض الضرائب على مدخراتها ، هى التى تعيش الآن فى أسمال بالية وأكواخ متداعية ، على حين توقفت الزراعة فى أراضيها » لتغيب أبنائها الذين جندوا للحرب (٥٩) • ولانقاذ هؤلاء الناس ، وهم أعظم الطبقات انتاجا ، اقتبس فوبان بعض أفـكار بواجلبرت ، فاقترح الغـــاء كل الضرائب القائمة ، والاستعاضة عنها بضريبة دخل تصاعدية لا تعفى منهـــا أية طبقة ، فيدفع ملاك الأرض ما بين ٥ و ١٠ ٪ ويدفع العمال ما لا يزيد عن ½ ٣ ٪ • وتحتفظ الدولة باحتكار الملح ، وتفرض الرسوم الجمركية عند الحدود الوطنية فقط (٦٠) •

ويصف سان سيمون هذا الكتاب ، وكيف استقبله الناس ، فيقول :

> كان الكتاب زاخرا بالمعلومات والأرقام ، مرتبة بأقصي درجة من الوضوح والبساطة والدقة • ولكنه وقع فى خطـأ جسيم ذلك أنه يبسط منهجا لو اتبع لكان فيه دمار الجيش من الرأسماليين والكتبة والموظفين من كل الانواع ، ولأرغمهم على أن يعيشوا على حسابهم بدلا من العيش على حســاب الشعب ، وقوض أساس هذه الثروات الضخمة التى نراهـــا تنمو وتزداد فى وقت قصير • وكان هذا سببا كافيا لسقوط هذا الكتاب •• وتعالت الصيحات من جانب أولئـك الذين يهمهم معارضته ••• ولا عجب اذن ، فى أن الملك الذى يلتف حوله هؤلاء الناس ، اصغى الى حججهم ، واستقبل المارشال فوبان اسوأ استقبال حين قدم اليه كتابه (٦١) •

وأنبه لويس بأنه رجل حالم ، قد يقلب مشروعه مالية البلاد رأسا

على عقب ، وسط أزمة الحرب . وفى ١٤ فبراير ١٧٠٧ صدر قرار من المجلس بمصادرة الكتاب وعرضه فى مشهرة . وبعد ستة أسابيع مات المارشال العجوز ، وقدفت فى عضده وأحزنه ما أصاب من خزى وعار . وتفوه الملك ببعض كلمات تعبر عن أسف جاء متاخرا « فقدت رجلا كان يحبنى حبا شديدا كما يحب الدولة (٦٢) » .

واستمرت الضرائب والحروب . وفى أغسطس ١٧٠٧ انضم فكتور أماديس الثانى دوق سافوى ـ الذى كان قد بدأ حليفا لفرنسا ـ الى يوجين سافوى وأسطول انجليزى فى حصار طولون . برا وبحرا ، حتى اذا سقطت فى أيديهم عمدوا الى مهاجمة مرسيليا ، فاذا سقطت هذه أيضا لأصبحت فرنسا معزولة عن البحر المتوسط . وأعد جيش فرنسي جديد وأرسل ليصد الغزاة ، وأفلح فى صدهم ، ولكن فى هذه الحملة بات معظم أراضي بروفانس خرابا بلقعا . وفى ١٧٠٦ حشد الملك جيشا قوامه ثمانون ألفا تحت قيادة مارشال فندوم . ودوق برجندى لمحبوب ابن الدوفين . وسيره ليوقف تقدم الحلفاء فى الفلاندرز فقابله مارلبرو ويوجين بجيش مماثل فى العدد فى أودينارد على نهر شلدت (١١ يوليه ١٧٠٨) ، ودارت الدائرة على الفرنسيين وخسروا ٢٠ ألفا بين قتيل وجريح ، كما أسر منهم سبعة آلاف . وأراد مارلبرو التقدم الى باريس ، ولكن يوجين أقنعه بمحاصرة ليل أولا ، حتى لا تقطع حاميتها خط مواصلات الحلفاء وامداداتهم . وسقطت ليل بعد حصار دام شهرين ، بخسارة فى الأرواح قدرها خمسة عشر ألفا .

وأحس لويس بأن فرنسا لم تعد قادرة على مواصلة القتال . وزاد من بؤس الشعب وشقائه أن شتاء ١٧٠٨ / ١٧٠٩ كاد أقسي شتاء وعته الذاكرة ، وتجمدت الانهار طيلة شهرين ، بل تجمدت مياه البحر على طول الشواطىء ، الى أن العربات ثقيلة الأحمال كأن تسير فى أمان فوق جليد المحيطات (٦٣) . وهلكت كل المزروعات بما فى ذلك أقدر أشجار الفاكهة على احتمال قسوة المناخ ؛ وكل الحبوب فى الأرض . كما مات فى هذا الفصل القاسي معظم الأطفال الحديثى الولادة (٦٤) . باستثناء ابن حفيد الملك ، لويس الخامس عشر فيما بعد ، الذى ولد لدوق أرجندى فى ١٥ فبراير ١٧٠٩ . وفى أعقاب ذلك جاعت المجاعة فى الربيع والصيف ، واختزن المحتكرون الخبز واحتفظوا له بسعر

عال . ويذكر سان سيمون ، وهو عادة لا يحب الملك ، أن لويس نفسه كان متهما باقتسام مغانم الاحتكارات (٦٥) . ولكن هنرى مارتن يقول « ان التاريخ يروى كثيرا الى حد أنه لا يسلم بالوصف البغيض الكئيب الذى أورده سان سيمون دون شيء من الريبة » (٦٦) . وأنقذ الموقف باستيراد ١٢ مليون كيلو جرام من الحبوب من دول المغرب العـــربى وغيرها ، وزراعة الشعير بمجرد ذوبان الثلوج وعـــودة الدفء الى الأرض (٦٧) .

وأحس لويس الرابع عشر بالذلة والهوان بسبب هزائم جيوشـــه ونكبات شعبه ، فأرســـل فى ٢٢ مايو ١٧٠٩ المركيـــز دى تورسي الى لاهاى ، يطلب الصلح . وكان دى تورسي مزودا بالتعليمات ليعـــرض النزول عن كل الامبراطورية الاسبانية الى الحلفاء ، وعن نيوفوندلند الى انجلترا ، واعادة مدن الحدود الى الهولنديين ، والتخلى عن تأييد حق آل ستيوارت فى العرش . وحاول المركيـــز أن يرشـــو مارلبرو ، فأخفق (٦٨) . وفى ٢٨ مايو قدم الحلفاء الى دى تورسي انذارا نهائيا يطالبون فيه ، لا بمجرد التنازل عن كل أسبانيا وممتلكاتها للأرشيدوق ، بل كذلك يطالبون بانضمام الجيش الفرنسي الى قوات الحلفاء فى طرد فيليب من أسبانيا اذا لم يكن قد غادرها فى بحر شهرين ، والا ، (كما قدروا) تركت فرنسا حرة فى اعادة تنظيم قواتها الضاربة أثناء انشغالهم فى شبه الجزيرة . وأجاب لويس بأنه يعز عليه أن يطلب منه استخدام القوة لطرد حفيده من أسبانيا التى كانت قد هبت من فورها لمســاندة فيليب . وقال « اذا كان لابد من مواصلة القتال ، فلأ قاتل أعدائى ، لا أبنائى (٦٩) » .

وأثارت مطالب الحلفاء شعور الاستياء فى فرنسا . وانضم الرجال عن طيب خاطر الى القوات المسلحة ، وكان كل همهـــم أن يجـــدوا الطعام ، وأرسل النبلاء ما لديهم من فضة الى دار سك العملة ، وراوغت السفن الفرنسية الانجليز الهولنديين ، وأحضرت من أمريكا سبائك تقدر قيمتها بثلاثين مليونا من الفرنكات . وحشد جيش جديد قوامه تسعون ألفا ، وضع تحت امرة فللار الذى لم يتمكن الحلفاء من هزيمتـــه من قبل ، وفى الوقت نفسه جمع مارلبرو مائة وعشرة آلاف جندى . والتقى الجمعان فى مالبلاكية (على الحدود المواجهة لبلجيكا) فى أعنـــف

معركة فى القرن الثامن عشر . وفقد مارلبرو ٢٢ ألف رجل فى انتصاره الاخير ، وخسر الفرنسيون ١٢ ألفا ، من بينهم فللار الباسل ، الذى كان فى السادسة والخمسين ، واندفع على راس قواته ، ثم حملوه من الميدان وقد بترت احدى ركبتيه قذيفة مدفع . وتقهقر الفرنسيون بانتظام واتجه الحلفاء للاستيلاء على مونز . وكتب مارلبرو الى زوجته يقول « الحمد لله والشكر لله ، ان فى مقدورنا الآن أن نحصل على الصلح الذى نريده (٧٠) » .

ويبدو أن الامر كان كذلك . فمن الواضح أن فرنسا كانت قد بذلت أقصي ما فى جعبتها ، فمن أين لها بجيش ثان من بين أسراتها المنهوكة التى استنزفت دماء أبنائها ، وكيف تطعمه وحقولها مهجورة مقفرة ؟. لقد عمت الفوضي الزراعة والصناعة والنقل والتجارة والماليـة ـ لقـد أصاب كل هذا المرافق دمار وانحلال ، يهيئان للاعداء المتقدمين احتلال فرنسا وتمزيق أوصالها . ان الملك الذى كان يوما معبود الشعب « الذى بعثه الله اليهم » بدأ يفقد حبهم بل احترامهم له . انه كان ينأى بنفسه عن باريس ، لأنه لم تغب عن ذاكرته جماعة الفروند المعادية ، واستاءت المدينة لطول نفوره منها وتباعده عنها ، وما أشد ما استهجنت النكات والشـتائم والنشرات واللافتـات كبريـاءه الاسـتبدادية اسـتهجانا لاذعا (٧١) . وتساءل الناس متعجبين ، كيف تكتظ قاعات فرساى ، وسط املاق فرنسا وعوزها ، برجال الحاشـية المقامـرين الخاملين المترفين ، على حين أن الملك وزوجته قد ركنا الى شيء من التقوى وكبح جماح النفس . « ولم تخفض نفقات الحاشية ولم ينقص عدد موظفيها حتى النهاية (٧٢) » . وأنشد بعض الباريسيين الذين لا يجدون الخبز رواية معدلة من « دعاء الرب » ، لم يستثنوا فيها لويس ولا زوجته ولا وزير خارجيته وماليته الجديد :

يا الهنا الذى فى فرساى ، لم يعد اسمك يقدس ، ولم تعد مملكتك عظيمة ، ولم تعد مشيئتك تنفذ فى البر والبحر، أعطنا الخبز الذى نفتقد فى كل مكان ، اغفر لأعدائنا الذين قهرونا ، لا لقوادك الذين هيأوا لهـم أن يفعـلوا ذلك . لا تستسلم لكل اغواءات لامينتنون ، ولـكن خلصـنا من شاميللارد (٧٣) .

وقالت مدام مينتنون ترثى لحال الملك : « انهم يلومونه ويؤنبونه بسبب نفقاته ، انهم يودون الاستغناء عن جياده وكلابه وخدمه .. .. انهم يريدون أن يرجمونى بالحجارة لأنهم يتصورون أنى لا أبلغه شيئا كريها خشية ايلامه (٧٤) » .

وكان النبلاء لا يزالون على ولائهم للملك الذى أكرمهم وحماهم ، ولكن وطنيتهم تزعزعت ، حين طالب الملك ، كآخر سهم فى جعبته ، بعشر دخولهم (١٧١٠) . ان الضريبة العامة التى اقترحها فوبان قبل ذلك بثلاثة أعوام لتحل محل كل الضرائب الاخرى ، أضيفت الآن الى سائر الضرائب . وكان للفقراء بعض العزاء فى أن يروا جباة الضرائب الكريهين يدخلون بيوت الاغنياء لفحص حساباتهم . وكره الملك أن يقتحم الخزائن السرية الخاصة ، ولكن قسيس اعترافه ، الأب تلييه ، أكد له أن من رأى أساتذة السوربون « ان كل ثروة رعاياه ثروته ، فاذا أخذها فكأنما يستولى على شيء يخصه (٧٥) » . وبالمثل عانت الطبقات الوسطى العليا شيئا من الخلخلة فى الحماسة العسكرية ، حيث انقطع دفع الفوائد عن السندات الحكومية . وقال سان سيمون : « ان اعادة سك العملة وتخفيض قيمتها » أتاحا للملك بعض الأرباح ، ولكنهما جلبا الدمار على أناس بعينهم ، كما أديا الى الخلل فى التجارة مما كان فيه توقفها التام (٧٦)». وأعلن كبار رجال المصارف ، مثل صمويل برنارد ، الافلاس ، فأدى ذلك الى تعطل كل الأعمال فى ليون . « كان كل شيء ينهار شيئا فشيئا ، واستنزفت المملكة بأسرها ، ولم تدفع للجند رواتبهم ، على أن أحدا لم يكن يتصور ماذا فعل بالملايين التى وصلت الى خزائن الملك (٧٧) » .

وفى مارس ١٧١٠ عاد لويس فطلب الى الحلفاء عقد الصلح ، وعرض أن يعترف بالأرشيدوق ملكا على أسبانيا ، وألا يقدم أى عون لفيليب ، بل أن يدفع بعض الأموال للعمل على خلعه ، وأن يتخلى للحلفاء عن ستراسبورج ، وبريزاخ ، والالزاس وليل وتورنى وايبر ومينن ، وفورن وموبرج ، ولكنهم لم يعرضوا عليه صلحا ، بل هدنة مدتها شهران ، وكان على لويس بقواته الفرنسية وحدها دون أية مساعدة من أى جانب آخر ، أن يطرد فيليب من أسبانيا ، فاذا عجز عن تحقيق ذلك فى فترة الشهرين ، استأنف الحلفاء القتال (٧٨) .

ونشر لويس هذه الشروط على شعبه الذى اتفقت كلمته على انهـــا شروط يستحيل قبولها ٠

وحشدت فرنسا ، بطريقة ما جيوشا جديدة ، وعندما غزا الأرشيدوق أسبانيا مرة ثانية بقوات انجليزية ونمساوية ، وشق طريقه لاخـــراج فيليب من مدريد مرة أخرى ، أرسل لويس لحفيده خمسة وعشرين الف جندى بقيادة دوق فندوم ٠ واستطاع الدوق بمساعدة المتطوعين الأسبان أن يهزم الغزاة فى بريهوجا وفللافيكيوزا (ديسمبر ١٧١٠) ٠ وبهـذا أعاد فيليب بشكل قاطع الى عرشه ، وبقيت أسبانيا تحت حكم البوربون حتى عام ١٩٣١ ٠

وفى نفس الوقت كانت ريح السياسة تغير اتجاهها فى انجلترا ٠ وكانت الملكة قد كتبت فى ١٧٠٦ « لست أطمع فى شيء ٠٠ الا أن أرى صلحا مشرفا ، حتى اذا اقتضت مشيئة الله أن أفارق الحياة ، وجدت كل الارتياح والطمانينة فى أن أترك بلدى المسكين وكل أصدقائى فى سلام وهدوء (٧٩) » ٠ وكانت الملكة آن تلتزم سياسة الحرب تحت تاثير دوقة مارلبرو العنيفة الملتهبة حماسة ، ولكن ضعف هذا التاثير الآن ، وعزلت الملكة الدوقة (ساره) من خدمتها (١٧١٠) ، وانحـــازت صراحة الى « المحافظين » ، وكان التجار والصناع والرأسماليون قد أقادوا من الحرب (٨٠) ، وأيدوا « الاحرار » صانعى الحـــرب ٠ أما ملاك الأراضي فقد خسروا لأن الحرب أدت الى زيادة فى الضرائب وتضخم فى العملة ، ومن ثم شجعوا الملكة فى تطلعهـــا الى الســـــلام ٠ وفى ٨ أغسطس عزلت جودولفين ، مساعد مارلبرو الايمن ، ورأس هارلى وزارة من المحافظين ٠ ومالت انجلترا نحو السلام ٠

وفى يناير ١٧١١ أرسلت الحكومة الانجليزية الى باريس سرا ، قسيسا فرنسيا ، هو الأب جولئييه الذى كان قد أقام فىلندن زمنـــا طويلا ، وقصد الى تورسي فى فرساى ، وسأله « هل تريد السلام ؟ لقد جئتك بوسائل تحقيقه ، مستقلا عن الهولنـــديين (٨١) » ٠ وتقدمت المفاوضات ببطء ، وفجأة ، وفى سن مبكرة بشكل يثير الدهشة ، سن الثانية والثلاثين توفى جوزيف الاول (١٧ أبريل ١٧١١) وأصبح الارشيدوق امبراطورا يحمل اسم شارل السادس، ووجدالانجليز والهولنديون الذينكانوا قد وعدوه بأسبانيا كلها ، انهم يواجهون ، نتيجة لانتصاراتهم الباهظة

التكاليف ، امبراطورية هبسبرجية مترامية الأطراف ، تهدد بالخطـــر الشعوب البروتستانتية وحرياتها ، مثلها فى هذا وذاك مثل امبراطورية شارك الخامس • وهنا عرضت الحكومة الانجليزية على لويس الاعتراف بفيليب ملكا على أسبانيا ومستعمراتها الأمريكيـــة ، مع بعض شروط معتدلة نسبيا : منها الضمانات ضد اتحاد فرنسا وأســـبانيا تحت تاج واحد ، وحصون على الحدود لحماية المقاطعات المتحدة وألمانيا من غزو فرنسا لها فى المستقبل ، واعادة الفتوحات الفرنسية الى وضعها السابق ، والاعتراف بحق ارتقاء الملوك البروتستانت الى العرش فى انجلترا ، وطرد جيمس الثالث من فرنسا وتجريد دنكرك من الســلاح ، وتثبيت ملكية انجلترا لجبل طارق ونيوفوندلند ومنطقة خليج هدسن ، ونقل حق بيع الرقيق للمستعمرات الأســبانية فى أمريكا ، من فرنســا الى انجلترا • ووافق لويس على هذه الشروط مع تعديلات طفيفة • وأبلغت انجلترا لاهاى أنها تحبذ عقد الصلح على هـــذه الأسس • ووافـــق الهولنديون عليها ، أساسا صالحا للمفاوضات ، واتخذت الترتيبات لعقد مؤتمر للسلام فى أوترخت • وعزل مارلبرو الذى كان يرى الحرب أكثر ربحا (٣١ ديسمبر ١٧١١) وعين مكانه جيمس بتلر ، دوق أورمند الثانى ، الذى زود بتعليمات تقضي بعدم الاشتباك فى أى قتال الا عند تلقى أوامر جديدة •

وعلى حين انعقد المؤتمر فى أوترخت (أول ينـــاير ١٧١٢) ، واصل القتال يوجين الذى اعتبر الشروط الانجليزية للصلح خيـــانة لقضية الامبراطورية • وتقدم يوما بعد يوم ليهاجم خط الدفـاع الذى أقامه فيللار المجد النشيط • وفى ١٦ يوليه أبلغت لندن أورمنـــد أن انجلترا وفرنسا وقعتا هدنة ، وأنه يجب بناء على ذلك انسحاب قواته الانجليزية الى دنكرك • وامتثلت هذه القوات للأمر ، ولكن الكتائب التى كانت تحت امرة أورمند فى القارة ، اتهمت الانجليز بأنهم آبقون هاربون من الجندية ، ووضعت نفسها تحت قيادة يوجين • وكان لدى الأمير آنذاك نحو مائة وثلاثين ألفا ، ولدى فللار نحو تسعين ألفـــا ، ولكن فى ٢٤ يوليه انقض المارشال اليقظ على كتيبة قوامها اثنى عشر ألفا من الهولنديين عند دنين (بالقرب من ليل) وأبادهـــا قبل أن يتمكن يوجين من القدوم لنجدتها • وتراجع الأمير عبر الشلدت ليعيد

تنظيم جيشه الصعب الانقياد ، وتقدم فيللار للاستيلاء على دواى ولى كزنوى ، وبوشان ، وتشجع لويس وفرنسا ، لأن هذه كانت الانتصارات الفرنسية الوحيدة على الجبهة الشمالية ، ولكنها ، بالاضافة الى انتصارات فندوم فى أسبانيا أضفت قوة جديدة على المفاوضين الفرنسيين فى أوترخت .

وبعد خمسة عشر شهرا من المراسم والشكليات والمناقشات ، وقع أطراف النزاع ، فيما عدا الامبراطور ، صلح أوترخت (١١ أبريل ١٧١٣) وتنازلت فرنسا لبريطانيا عن كل ما وعدت به من قبل فى المفاوضات التمهيدية ، بما فى ذلك احتكار تجارة الرقيق الرائجة ، التى تعتبر وصمة عار لذاك العصر . وقدم العدوان القديمان تنازلات متبادلة عن رسوم الواردات ، وأعاد الهولنديون لفرنسا ليل واير وبيتون ، ولكنهم احتفظوا بالسيادة على كل الأراضي الوطيئة حتى يتم عقد الصلح مع الامبراطورية ، على حين يستولى ناخب بافاريا على شارلروا ولكسمبرج ونامور ، وأعيدت نامور الى دوق سافوى . واحتفظ فيليب الخامس بأسبانيا وأمريكا الاسبانية . ورفض ثم عاد فوافق (١٣ يوليه) على التخلى عن جبل طارق ومينو رقة لانجلترا . وواصل يوجين سافوى القتال ضد البريطانيين لشعوره بالمرارة نحوهم لتوقيعهم صلحا منفردا . ولكن خزانة الامبراطورية أصبحت خاوية ، ونقص جيشه الى ٤٠ ألفا ، على حين كان فيللار يتقدم نحوه بمائة وعشرين ألفا . وأخيرا قبل دعوة لويس الرابع عشر له للقاء فيللار لوضع شروط للصلح . وبمقتضي معاهدة راستات (٦ مارس ١٧١٤) احتفظت فرنسا بالالزاس وستراسبورج ، ولكنها أعادت الى الامبراطورية كل الفتوحات الفرنسية على الضفة اليمنى لنهر الراين ، واعترفت بحلول النمسا محل أسبانيا فى حكم ايطاليا وبلجيكا .

وبذلك حققت معاهدتا أوترخت وراستات أكثر قليلا مما كان يمكن أن تحققه الدبلوماسية بالوسائل السلمية فى ١٧٠١ . وبعد ثلاثة عشر عاما من القتل والابادة والفقر والتخريب ، ثبتت هاتان المعاهدتان خريطة أوربا لمدة ستة وعشرين عاما ، كما ثبتتها معاهدات وستفاليا لمدة جيل واحد بعد حرب الثلاثين عاما . وكانت المهمة فى كلتا الحالتين اقامة توازن القوى بين أسرتى هبسبرج والبوربون . وقد تم هذا بالفعل . وقام شبيه لهذا التوازن بين فرنسا وانجلترا فى أمريكا واستمر حتى نشوب حرب

السنين السبع (١٧٥٦ ـ ١٧٦٣) ٠

وأهم الخاسرين فى هذا النزاع الدموى حول الوراثة الاسبانية هما هولنده وفرنسا ، لقد كسبت الجمهورية الهولندية أرضا ، ولكنهـــا خسرت سيادة على البحر ، فلم تعد قادرة على مباراة انجلترا فى حمولة السفن أو فى فن الملاحة أو فى الموارد أو فى الحرب ، ان انتصارهـا استنزفها وأنهكها ، فبدأت تضمحل ٠ كذلك ضعفت فرنسا الى حد يكاد يكون خطيرا ٠ لقد بقت على مرشحها لعرش أسبانيا ، ولكنها أخفقت فى الابقاء على امبراطوريته سليمة لم تمس ، ودفعت ثمنا لهذا النصر القاتم الذى فقد بريقه ، حياة مليون من أبنائها بالاضافة الى ضـــياع سيادتها فى البحار ، وانهيار حياتها الاقتصادية بصفة مؤقتة ٠ ولم تكن فرنسا لتفيق وتلتقط أنفاسها من عصر لويس الرابع عشر ، قبـــل ظهور نابليون ، ولكن لمجرد أن تعيد مأساة لويس ٠

أما الفائزان فى الحرب فهما النمسا داخل القارة ، وانجلترا فى كل مكان خارجها ٠ فقد استولت النمسا آنذاك على ميلان ونابلى وصقلية وبلجيكا ، وأصبحت أعظم قوة فى أوربا حتى ارتقاء فـردريك الأكبر العرش (١٧٤٠) ٠ وفكرت انجلترا فى السيادة على البحار أكثر مما فكرت فى التوسع فى الارض ٠ وحصلت على نيوفوندلند ونوفا سكوشيا ، ولكن كان تحكمها فى طرق التجارة أكبر قيمة لديها ٠ وأرغمت فرنسا على تخفيض رسومها الجمركية ، وعلى أن تجرد من السلاح قلعةدنكرك وثغرها اللذين كانا يشكلان خطرا على السفن الانجليزية ٠ ويفضل جبل طارق فى أسبانيا ، وبورت ماهون فى مينورقة استطاعت انجلترا أن تسيطر على البحر المتوسط ٠ ولم يكن لهذه المكاسب مشـــهد مثير فى ١٧١٣ ، ولكن كان لابد أن تدون نتائجها فى تاريخ القرن الثامن عشر ٠ وفى نفس الوقت أمنت العقيدة البروتستانتية وارتقاء البروتستانت الى العرش شر العوادى ، اللهم الا نسبة المواليد ٠

وثمة نتيجة هامة للحرب ، تلك هى اشتداد الروح القومية ، وروح الكراهية بين الدول ، حيث نسيت كل أمة مكاسبها وتذكرت جراحها ٠ فما كان لألمانيا أن تغفر اجتياح البالاتينات وتخريبها مرتين ٠ ولم تكن فرنسا لتنسي بمرعة المذابح التى لم يســـبق لها مثيل فى انتصـــارات

مارلبرو ، وكانت أسبانيا تعانى كل يوم عار وقوع جبل طارق فى أيد أجنبية • وباتت كل أمة ترقب أن تحين الفرصة للانتقام •

ان بعض ذوى النفوس الكريمـــة الذين اعتقدوا أن أوربا قـارة المسيحيين راودهم حلم الوصول الى بديل عن الحرب • وكان شـارل كاسل ، من رهبان كنيسة القديس بطرس قد رافق الوفد الفرنسي الى وترخت ، فلما عاد نشر خطة لتثبيت دعائم السلام الجديد ، وتمنى لو أن أمم أوربا أتيح لها أن تتحد فى « عصبة امم » مع مؤتمر دائم من المندوبين عنها ، ومجلس للتحكيم فى النزاع ، ونظام لقانون دولى ، وقوة مسلحة مختلطة للوقوف فى وجه أية دولة متمردة ، وتخفيض أى جيش وطنى الى ستة آلاف رجل ، وايجاد مقاييس وعمـلة موحـدة تستخدم فى كل انحـاء أوربا (٨٢) • وقـدم الراهب مشروعه الى ليبنتز ، الذى لم يعد يثق بأن هذا أفضل العوالم الممكنة ، فذكر الراهب « بأن ثمة قدرا مشئوما يعترض دوما طريق الانسـان الى تحقيـق سعادته (٨٣) » فالانسان حيوان نزاع الى المنافسة ، وخلقه هو قدره •

٦ ـ أفول نجم الاله : ١٧١٣ ـ ١٧١٥ :

ان لويس الرابع عشر ، لو حكمنا عليه بمعايير عصره ، لم يكن الغول البشع ، الذى صورة المؤرخون المعادون ، وكل الذى اقترفه هذا الملك هو أنه طبق على نطاق أوسع ، ولفترة من الزمن ، مع نجـاح بغيض ، نفس أساليب الحكم المطلق والتوسـع الاقليمى ، والغـزو العسكرى التى تميز بها سلوك أعدائه ومطامعهم ، بل ان وحشية جيوشه فى البالاتينات كانت لها سابقة فى أعمال السلب والنهب فى مجدبرج (١٦٣١) ، وخاتمة فى مذابح مارلبرو • على حين أن لويس تميز بأنه قد امتد به الأجل حتى تثار منه فى شخصه ، لا فى أبنائه ، « ربات الانتقام » لكل ما جنى عليه غروره وصلفه وسلطانه من آثام •

ولم يبخسه التاريخ حقه فى شيء من الاعجاب بما أبدى من شجاعة ووقار عند هزيمته ، كما استشعر شيئا من الاشفاق عليه فى الكوارث التى دمرت تقريبا ابناءه وجيوشه واساطيله فى وقت معا • وفى ١٧١١ مات ابنه الشرعى الوحيـد « الدوفين الأكبر » لويس ، تاركا وراءه الملك وحفيدين صغيرين لويس دوق برجندى ، وشارل دوق برى • وتحلى

لويس الأصغر بمناقب عظيمة بفضل رعاية فنيلون وسهره على تربيته وتهذيبه ، وأصبح عزاء الملك وسلواه فى شيخوخته • وفى ١٦٩٧ تزوج لويس الأصغر من مارى أدليد سافوى ، التى ذكر جمالهـــا وذكاؤهـا ومفاتنها ، الملك بمدام هنريتا وشبابه السعيد معها • ولكن فى ١٢ فبراير ١٧١٢ أودت الحمى المتقطعة بهذه الروح المرحة فى ســـن السادســـة والعشرين • وأبى زوجها المخلص أن يتخلى عن سرير مرضها ، فانتقلت اليه العدوى ، ومات بنفس المرض فى ١٨ فبراير وهو فى سن التاسعة والعشرين ، بعد وفاة أبيه بعام واحد • وانتقلت العدوى منهمـــا الى طفليهما ، ومات أحدهما فى ٨ مارس فى سن الثامنة ، أما الأصغر فقد بقى على قيد الحياة ، فى حالة من الضعف والهزال لم يكن أحد يحلم معها بأنه سيعيش ليحكم فرنسا حتى ١٧٧٤ باسم لويس الخامس عشر • ولو أن هذا الصبى الهزيل قضي نحبه لكان وريث العرش شـــارل دوق برى ، ولكن شارل توفى ١٧١٤ •

وكان ثمة خليفة آخر يمكن أن يؤول اليـــه العرش ـ هو فيليب الخامس ملك أسبانيا الابن الأصغر للدوفين الأكبر ، ولكن نصف أوربا تعهد بالحيلولة بينه وبين الجمع بين التاجين • وكان يليه فى ترتيب الوراثة ، فيليب دوق أورليان حفيـــد لويس الثالث عشر ، وابن أخى الملك وزوج ابنته • ولكن فيليب هذا كان له معمل واصل فيه تجـــاربه فى الكيمياء • ولذلك تناقل الناس اتهامه بدس السم لدوق ودوقة برجندى وابنهما الاكبر • وقد اختلف الأطباء الذين قاموا بفحص الجثث الثلاث وتشريحها بعد الوفاة حول استخدام السم ، واستشاط فيليب غضبا لهذه الشبهات ، وطلب الى الملك أن يقدمه لمحاكمة علنية ، واعتقد لويس أنه برىء ، وأبى تعريضه للمحاكمـــة والتعذيب حتى تثبت براءته أو ادانته ، وأن يلحق به هذا العار •

وكان ثمة ملجأ أوحل أخير ، اذا أخفقت فروع الوراثة هذه • ذلك أن الملك كان قد أضفى الصفة الشرعية على ابنيه غير الشرعيين دوق مين وكونت وف تولوز • وفى ذاك الوقت (يوليه ١٧١٤) أصدر الملك مرسوما سجله برلمان باريس دون معارضة ، ينص على أنه فى حالة عدم وجود أمراء يجرى فى عروقهم الدم الملكى ، يكون لهذين الابنين غير الشرعيين سابقا حق وراثة العرش • وبعد سنة من ذلك ، أصـــدر

مرسوما آخر بمساواتهما فى الرتبة من الوجهة القانونيـــة بالأمـــراء الشرعيين ، وكان لهذا القرار وقع الصاعقة على سان سيمون والنبـلاء الآخرين (٨٤) ، وكانت أمهما مدام دى مونتسـبان قد ماتت ، ولكن امهما بالتنشئة ، زوجة الملك ، أحبتهما مثل أولادهـــا . واستخدمت نفوذها للنهوض بهما فى مراقى الشرف والسلطة والجاه .

وفى غمرة هذه المشاكل وفقدان الأولاد ، واجه لويس الأزمة الأخيرة فى الحرب . وعندما كان يودع فيللار الذى كان فى طريقه للاقاة يوجين الذى كان يتقدم الى جبهة بلجيكا ، انهارت فجأة قوى الملك الذى كان آنذاك فى الرابعة والسبعين ، وهو يقول « انت ترى الآن حالى أيهـــا المارشال ، ليس ثمة الا أمثلة قليلة لما أصابنى ـ أفقد فى نفس الشـــهر حفيدى وحفيدتى وابنهما وكانوا جميعا واعدين مبشرين بحسن المستقبل ، وكم كنت أحبهم . ان الله يعاقبنى ، وأنا استحق العقاب ، سـيخف عذابى فى الدار الآخرة » . ولما أفاق استطرد يقول : « فلنطرح جانبا المآسي والنوائب المنزلية ، لنرى كيف نتفادى كوارث المملكة . انى أعهد اليك بقوات الدولة وبتخليصها . قد لا يحالفك الحظ ، فاذا حلت الكارثة بالجيش الذى تتولى قيادته ، فماذا فى رأيك هى الخطة التى انتهجها أنا شخصيا ؟ » ولم ينبس فيللارد ببنت شفة . فقال الملك « لا يدهشنى الا تجيبينى على الفور . وفيما انتظر أن تفصح لى عن رأيك ، أبلغك أنا رأيى . انى اعرف تفكير رجال حاشيتى ، انهم جميعـا تقريبـــا يريدوننى أن آوى الى بلوا (مدينة فى أوسط فرنسا على نهر اللوار) اذا حلت الهزيمة بجيشي . أما بالنسبة لى ، فانا أعلم ، أن جيوشا بمثل هذه الضخامة لا يمكن أبدا أن تنهزم الى الحد الذى لا يستطيع معـــه الجزء الاكبر منها أن يرتد الى السوم . وهو نهر من الصعب عبوره ، وينبغى أن أذهب الى بيرون أو سانت كنتان ، وأجمع هنـــاك كل ما ستطيع جمعه من قوات ، وأبذل معك محاولة أخيرة ، فاما هلكنا معا أو أنقذنا الدولة (٨٥) » .

وخدع انتصار فيللار فى معركة دنين الملك بالأمـــل فى ميتـــة بطولية . ولكنه بقى على قيد الحياة بعد المعركة بثلاثة أعوام ، وبعد الصلح بعامين . وفيما عدا الناصور الشرجى الذى شفى منه منذ فترة طويلة ، ظل الملك يتمتع بالصحة الى حد معقول لمدة سبعين عاما . ولم

يعتدل فى مأكله ، ولكنه لم يصبح بدينا قط • ولم يسرف فى الشراب ، ولم يهمل القيام بتمرينات رياضية قوية فى الهواء الطـلق ، الا لأيام قلائل ، حتى فى الشتاء القارس ١٧٠٨ ـ ١٧٠٩ • ومن الخسير ان نجزم بانه كان يمكن أن يعمر أطول مما عاش ، اذا كان عدد اطبائه أقل مما كان عليه ، أو أن الأدوية المسهلة والفصد وامتصاص العـرق وغير ذلك مما استخدموا فى علاجه ، كانت أسوأ أثرا من الامراض التى قصدوا الى انقاذه منها • وفى ١٦٨٨ أعطاه أحد الأطباء دواء مسهلا قويا الى حد أن مفعوله ظهر احدى عشرة مرة فى ثمان ساعات ، أحس بعدها بشيء من التعب ، كما قالوا (٨٦) • وعندما رسم ريجـو فى ١٧٠١ الصورة المتألقة فى اللوفر ، فانه أبرز لويس وكأنه لا يزال متغطرسا مزهوا بالقوة والنصر والغلبة والملابس الرسمية ، والشعر الأسـود المستعار الذى يخفى المشيب ، والوجنات المنتفخة التى تنم على الشهوة ، وبعد ذلك بسبع سنين أبرزه كويسفوكس فى التمثـال الضخـم فى نوتردام ، راكعا يصلى ، ولكن لايزال أشد شعورا بالملكية منه بالموت ، وربما كساه الفنانون بزهو واعتداد بالنفس أكثر مما أحس هو به ، لأنه كان قد تعلم فى سنوات الخيبة والاخفاق والمحن المتفاقمة ، أن يتقبل اللوم والعتاب فى شيء من التواضع والخضـوع ، عـلى الأقـل من مينتنون (٨٧) • وأصبح كالطفل بين يدى يسوعى متعصب هو تلييه الذى كان قد خلف الأب لاشيز « كاهن الاعتراف للملك » فى ١٧٠٩ • « ان خليفة شارلبان طلب الصفح عن خطاياه من ابن أحد الفلاحين(٨٨) » وارتفعت الى السطح المبادىء القوية للكثلكة والتقوى التى كان قـد تلقاها عن أمه ، حين انحسرت الآن الأهواء والعـواطف ، وفقـدت العظمة بريقها • وراجت شائعة بأن الملك فى موجة تبتله كان قد انتسب الى جماعة اليسوعيين فى ١٧٠٥ ، وأضافت أنه فى مرضه الأخير أخذ على نفسه العهد الرابع أن يكون عضوا كامل العضوية فى « جماعـة يسوع (٨٩) » •

وفى يناير ١٧١٥ فقد الملك شهيته المعهودة ، واشتد توجعه بشـكل واضح الى حد المراهنة فى هولنده وانجلترا على أنه لن يعيش عامه(٩٠) فلما قرأ قصاصات الأنباء عن هذا الرهان سخر منها وظل على منهجـه المعتاد فى حضور المؤتمرات واستقبال السفراء وعرض الجند والصيد ،

وكان يختم يومه مع زوجته المخلصة المنهوكة مينتنون ، وهى آنذاك فى التاسعة والسبعين • وفى ٢ أغسطس كتب وصية عين بمقتضاها دوق مين وصيا على لويس الخامس عشر ، وعين الدوق رئيسا لمجلس وصاية يتولى حكم فرنسا حتى يبلغ الصبى رشده • وفى ١٢ أغسطس انتشرت القروح فى ساقه وتسممت (أصيبت بالغنغرينا) وأصبحت كريهة الرائحة ، وانتابته الحمى ولزم الفراش وفى ٢٥ أغسطس كتب ملحقا للوصية عين فيه فيليب أورليان رئيسا لمجلس الوصاية • على أن يكون له الصوت المرجح عند انقسام الآراء • وقال لاثنين من القضاة تسلما الوثيقة : « لقد كتبت وصية ، انهم ـ (وربما كان يقصد مينتنون ودوق ودوقة مين وأنصارهم) ألحوا علىّ فى كتابتها ، وكان لزاما أن اشترى راحتى • ولكن لن يكون لها أية قيمة بمجرد أن ألفظ أنفاسي الأخيرة • اننى اعلم جيدا ماذا كان من أمر وصية والدى (٩١) » • وقدر لهذه الوصية المضطربة أن تكتب فصلا فى التاريخ الفرنسي •

ومات لويس « ملكا » تكلله كل مظاهر الملكية • وبعد تناول الأسرار المقدسة وجه الى رجال الدين الذين أحاطوا بسريره ، اعترافا اضافيا لم يقابلوه بالترحيب :

يؤسفنى أن أترك شئون الكنيسة فى وضعها الراهن • انى أجهل الموضوع جهلا تاما كما تعلمون • وانى لأدعوكم لتكونوا شهداء على أنى لم أفعل الا ما أردتم أنتم ، وأنى فعلت كل ما أردتم ، وستقفون أنتم بين يدى الله لتجيبوا عن كل ما تم عمله • انى أحملكم مسئولية هذا أمام الله • ان لى ضميرا نقيا • وما أنا الا جهول أسلمت نفسي لتوجيهكم (٩٢)•

ثم وجه الحديث الى رجال الحاشيته :

أيها السادة ، أسألكم الصفح عن المثل السيىء الذى ضربته لكم • وينبغى أن أقدم لكم أجزل الشكر على الطريقة التى خدمتمونى بها ، على الاخلاص الذى ظهرتموه دائما • وأرجوكم أن تقدموا نفس الغيرة والاخلاص اللذين منحتمونى اياها لحفيدى ، انه صبى قد يكون أمامه أن يعانى كثيرا • وكل أملى أن تعملوا جميعا من أجل الاتحاد • فاذا قصر أحد فى هذا فعليكم أن تحاولوا رده انى جادة الصواب والواجب • انى الحظ انى أترك لمشاعرى العنان فتستبد بى ، وانى أسبب لكم شيئا من الضيق ، فاغفروا لى هذا كله • وداعا

أيها السادة ، أنا واثق أنكم ستذكروننى أحيانا (٩٣) .

وطلب الى دوقة فنتادور احضار حفيده وكان فى ســـن الخامسة ، فقال له ، طبقا لرواية الدوقة : ـ

أى بنى ، انك ستصبح ملكا عظيما ، لا تتبع مسلكى فى البناء أو فى الحرب ، حـاول ، على العكس ، أن تكون فى سلام مع جيرانك . اترك ما لله لله ، ووف بالتزاماتك نحـــو الله ، واحمل رعاياك على تقديسه وطاعته ، وحاول أن تخفف عن شعبك ، وهذا ما لم أفعــله أنا ، لســـوء الحظ . ولدى العزيز ، انى أمنحك بركتى من كل قلبى (٩٤) .

والتفت الى اثنين من الخدم رآهما يذرفان الدمع وقال « لمـــاذا تبكيان ، هل ظننتما أنى مخلد (٩٥) ؟ . ثم اتجه الى مدام مينتنون ليعيد اليها شيئا من الطمأنينة وقال : « لقد ظننت أن الموت أصعب من ذلك . أؤكد لك أنه ليس عملية فظيعة ، انه لا يبدو لى شاقا مطلقا (٩٦) » . وطلب اليها أن تتركه ، وكأنما كان يدرك أنها ستصبح بعد موته نفسـا ضائعة وسط الوعى الطبقى السائد بين أفراد حاشـــيته . فآوت الى جناحها ، ووزعت أثاثها بين مرافقيها وخدمها ، ورحلت الى سان سير التى لم تبرحه حتى وفاتها ١٧١٩ .

وكان الملك يتحدث فى ثقة بالغة ، ثم قضي ليلة طويلة فى كرب شديد يعانى سكرات الموت وهو فى النزع الأخير ، حتى وافاه الأجـل فى أول سبتمبر ١٧١٥ ، ومن سنوات عمره السبع والسبعين ، قضي اثنين وسبعين عاما على العرش ، وهذا أطول حكم فى تاريخ أوربا . أما رجال الحاشية القلقون على وظائفهم ، فانهم حتى قبل أن تحـين اللحظة الاخيرة هجروه ليقدموا ولاءهم واجلالهم الى فيليب أورليان ودوق مين . واجتمع بعض اليسوعيين حول الجثمان ليقوموا بالطقوس المعهودة لمن مات من أبناء طائفتهم (٩٧) . وتلقى أهالى باريس نبـأ موت الملك على أنه خلاص مبارك من حكم طال أكثر مما ينبغى ، ورأى عظمته يلطخها البؤس والهزيمة . ولم يوفروا الا القليل من مظاهر الأبهة والعظمة للجنازة التى سارت بجثمان أشهر ملك فى تاريخ فرنسا الى سان دنيس فى ٩ سبتمبر . قال فولتير « على طول الطريق رأيت خياما صغيرة منصوبة يشرب فيها الناس ويغنون ويسمرون (٩٨) » وكان دوكلوس آنذاك فى الحادية عشرة ، ولكنه تذكر فيما بعد « أن كثيرا من الناس بلغ من حقارتهم أنهم كانوا يصبون اللعنات والشتائم عند مرور النعش بهم (٩٩) » .

وفى تلك اللحظة تذكر الباريسيون أخطاء الملك الراحل ، وبدت لهم فى وضوح غطى على ما عداها • وأحسوا أن حبه للجاه والسلطان والعظمة قاد فرنسا الى حافة الخراب • وكرهوا غطرسته واعتداده بنفسه اللذين دمرا الحكم الذاتى المحلى ، وركزا كل الحكم فى ارادة واحـدة لا يستطيع أحد أن يتحـــداها • ورثوا لملايين الفرنكات التى أنفقت وآلاف الارواح التى أزهقت فى تجميل فرساى ، وصبوا اللعنات على اهمال الملك شأن عاصمته المشاغبة المتمردة • وابتهجت فئة قليلة لأن اضطهاد الجانسنيين قد يتوقف بعد موته ، على أن أغلبية كبيرة ظلت تمتدح طرد الهيجونوت • وفى استرجاع الأحداث الماضـــية والتأمل فيها ، كان واضحا أن غزو هولنده فى ١٦٧٢ ، وغزو ألمانيا ١٦٨٨ ، والتسرع فى الاستيلاء على مدن الحدود فى ١٧٠١ ، كانت كلها أخطاء جسيمة جلبت على فرنسا عداوة الكثيرين من كل جانب • ولكن كم من الفرنسيين كانوا قد استنكروا هذه الفتوحات ، ونطقوا بكلمة حق فى اجتياح البالاتينات ؟ لقد كانت الامة آثمة مدانة قدر اثم مليكها وادانته، انها لم تأخذ عليه جرائمه بل هزائمه • انها ، باستثناء بعض القساوسة، لم تشجب فسقه وفجوره وزناه • ولم تظهر تحمسا لاصلاحه الخلقى ، أو تقواه أو اخلاصه لزوجته غير المتكافئة معه ، ونسيت الآن أنه كان لعدة سنين قد زين سلطانه بشيء من اللطف والكياسة والانسانية (١٠٠)• وانه الى أن ركبه شيطان الحرب ، كان يؤيد كولبير فى تنمية الصناعة والتجارة فى فرنسا ، وأنه كان قد حمى موليير من المتعصبين ، وراسين من عصابات المتآمرين ، وأن اسرافه فى الانفاق لم يكن لحسـاب ترفه وبذخه فحسب ، بل انه كذلك هيأ به لفرنسا تراثا ضخما من الفن •

ان ما اختلج فى اعماق الشعب بشكل أوقع وأعدل ، هو ما كانوا قد دفعوه من دمائهم وأموالهم ، ثمنا لمجد تقوضت أركانه بموت الملك وافقار فرنسا وخرابها • فندر أن وجدت فى الامة أسرة لم تفقد أحـــد أبنائها فى الحروب ، وتقص عدد السكان الى حد باتت معه الحكومة تقدم جوائز للوالدين الذين عندهم عشرة أبناء • وكانت الضرائب قد خنقت الحافز الاقتصادى ، كما سدت الحرب منافذ التجارة ، وأغلقت الأسواق الأجنبية فى وجه البضائع الفرنسية ، ولم تكن الدولة مفلسـة فحسـب ، بل كانت كذلك مدينـة بنحـو ثلاثة آلاف مليـون من الفرنكا ت(١٠١) • وضاع ما كان للنبلاء من نفع وأثر ، حين انصرفوا عن الادارة المحلية الى التسكع فى أروقة البلاط ، ولم يتألقـوا الا فى ملابسهم الثمينة وبسالتهم العسكرية • وظهرت طبقة جديدة من النبلاء

عن طريق بيع الألقاب بالجملة لعامة الناس • وفى سنة واحدة منـــح الملك لقب النبالة لخمسمائة شخص مقابل ستة آلاف جنيه دفعهـا كل منهم ، وبذلك أصبح بعض أبناء البيوتات العريقة أتباعا لأبناء رقيـق الأرض • ولمالم تعد الحرب صراعا بعيدا بين المرتزقة والمجالدين ، بل اختبارا مضنيا مزعجا للموارد والاقتصاديات ورجل الدين ، وازدهر الرأسماليون وسط الاضمحلال العام • ذلك أنك تجد فى الدول الحديثة أن الرجال الذين يستطيعون أن يسوسوا النـاس ، لا يسوسون الا من يستطيعون أن يدبروا الامور ، وأن يستطيعون تدبير المـال يسوسون الجميع •

وفى حكمنا على لويس الرابع عشر ينبغى أن نتذكر قولة جوتة المأثورة الانسانية ، بأن رذائل المرء هى من تأثير عصره • على حين أن فضائله نابعة منه ، أو كما أوردها الرومان فى ايجاز متميز « الرذائل هى رذائل الزمان لا رذائل الانسان (١٠٢) » ان حكمـه الاستبدادى المطلق ، والتعصب الذى حدا به الى الاضطهاد والتعذيب ، والتلهف على السلطة والميل للحروب ، ركبت كلها فيه باعتباره ابنا لعصره ولكنيسته• أما كرمه وسخاؤه وشهامته وكياسته ، وتقديره وتشجيعه للأدب والفن ، وقدرته على احتمال أعباء حكومة مركزية بعيدة المدى ، فهى كلهـا صفاته الشخصية التى جعلت منه ملكا بكل معانى الكلمة • وكتب جوته : ان الطبيعة أبدعت فى لويس الرابع عشر نوعا كاملا من الطراز الاول للنمط الملكى ، وبهذا أنهكت نفسها وحطمت القياس (١٠٣) • وقـال نابليون « كان لويس الرابع عشر ملكا عظيما ، وهو الذى رفع فرنسا الى المرتبة الأولى بين الأمم • وأى ملك من ملوك فرنسا منـذ عهـد شارلمان يمكن أن يقارن به فى كل نواحيه ؟ (١٠٤) » • ومن رأى لورد أكتون أنه « كان الى أبعد حد ، أقدر من ولد فى العصور الحديثة على درجات سلم أى عرش (١٠٥ » • لقد شن حروبا مدمرة ، وسخر كبرياءه فى اسراف فى البناء والترف ، وخنق الفلسفة ، وأثقل كاهل شـعبه بالضرائب الى حد الاملاق والعوز ، ولكنه هيأ لفرنسا حكومة منظمة ، ووحدة وطنية ، وعظمة ثقافية ، بلغت بها مرتبة الزعامة التى لا نزاع فيها على العالم الغربى • وأصبح علما على أسمى عهد زاهر لبـلاده ورمزا له • أما فرنسا التى تعيش على المجد والعظمة ، فقد تعلمت أن تغفر له تدميره لها فى سبيل أن يجعلها عظيمة •

Obeikandl.com

19. Voltaire, *Louis XIV*, 301.
20. Michelet, V, 39.
21. Clark, *Seventeenth Century*, 72.
22. *Enc. Brit.*, III, 242a.
23. *Voltaire*, 148.
24. *Ibid.*, 149.
25. Ogg, *Europe in the 17th Century*, 314.
26. Martin, II, 106.
27. Voltaire, 157.
28. *Enc. Brit.*, XIV, 923a. Sir Winston Churchill's gallant attempt to exonerate his ancestor is not convincing; *cf.* his *Marlborough*, II, 328, 373-86.
29. Nussbaum, *Economic Institutions*, 108.
30. Martin, II, 288.
31. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 179, Book III, Ch. iv.
32. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 208; Havens, *The Age of Ideas*, 52.
33. Cruttwell, 201.
34. Lewis, *Splendid Century*, 31.
35. Michelet, V, 14-15.
36. *Ibid.*, 36-37.
37. *Camb. Mod. History*, V, 349.
38. *Ibid.*, 378.
39. Ogg, 266.
40. Professor Wolfgang Michael in *Camb. Mod. History*, V, 393.
41. Martin, II, 314.
42. *Camb. Mod. History*, V, 394.
43. *Ibid.*
44. 395; Martin, II, 317.
45. Voltaire, 310; *Camb. Mod. History*, V, 396; Martin, II, 318n.
46. Chesterfield, Letter of May 31, 1752.
47. Martin, II, 325.
48. Ogg, 267; *Camb. Mod. History*, V, 401.
49. Boulenger, 291.
50. Voltaire, 186.
51. Mahan, 204; Ogg, 268; *Camb. Mod. History*, V, 398-9.
52. *Camb. Mod. History*, VI, 9.
53. Martin, II, 335.
54. Voltaire, 330.
55. Guizot, *History of France*, IV, 373.
56. Voltaire, 219.
57. Saint-Simon, I, 370.
58. Michelet, V, 86.
59. Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 410; Lacroix, Paul, *Eighteenth Century*, 80.
60. *Camb. Mod. History*, V, 30.
61. Saint-Simon, I, 372.
62. Martin, II, 431.
63. Saint-Simon, II, 61.
64. Boulenger, 306.
65. Saint-Simon, II, 262.
66. Martin, II, 447.
67. *Ibid.*, 448.
68. Voltaire, 229.
69. *Ibid.*, 230.
70. Churchill, *English-speaking Peoples*, III, 68.
71. Saint-Simon, II, 68.
72. Lacroix, *Eighteenth Century*, 22.
73. Boulenger, 307.
74. *Ibid.*
75. Saint-Simon, II, 166.
76. *Ibid.*, 67.
77. *Ibid.*, 66.
78. Voltaire, 233; Michelet, V, 95.
79. Rowse, *Early Churchills*, 254.
80. Trevelyan, *English Social History*, 294.
81. Martin, II, 474.
82. In Hoover, H., and Gibbons, H. A., *Conditions of a Lasting Peace*, 33.
83. In Hazard, 437.
84. Voltaire, 306.
85. Martin, II, 493.
86. Lewis, *Splendid Century*, 181.
87. E.g., *cf.* Cruttwell, 284.
88. Saint-Amand, *Court of Louis XIV*, 51.
89. Martin, II, 540n.
90. Cruttwell, 347.
91. Martin, II, 539.
92. Saint-Simon, II, 354; Guizot, *History of France*, IV, 483.
93. Boulenger, 317.
94. Saint-Simon, II, 355.
95. *Ibid.*, 356.
96. Boulenger, 318.
97. Michelet, V, 125.
98. Martin, H., *Histoire de France*, XV, 7.
99. Duclos, *Secret Memoirs of the Regency*, 21.
100. Voltaire, 308-9.
101. Michelet, IV, 392.
102. Quoted by Voltaire, in *Works*, XIXb, 99.
103. Parton, *Life of Voltaire*, II, 493.
104. Saint-Amand, 53.
105. Acton, 234.

23. Hazard, *Critical Years*, 223.
24. *Jordan*, 81-91.
25. *Ibid.*, 97.
26. Hazard, 224.
27. Kesten, H., *Copernicus and His World*, 400.
28. Hazard, 228.
29. *Ibid.*, 234.
30. 230; Martin, H., *Histoire de France*, XIV, 292.
31. Hazard, 231.
32. Leibniz, *Sämtliche Schriften*, I, 417, in Smith, P., *Modern Culture*, I, 318.
33. *New Essays*, Preface, p. 42.
34. Locke, *Essay*, II, i, 2.
35. Aristotle, *De anima*, III, 4.
36. Leibniz, *New Essays*, Book II, Ch. i, p. 111.
37. *Ibid.*
38. Preface, p. 43.
39. I, i, pp. 71, 81.
40. Locke, *Essay*, II, 21.
41. Leibniz, *New Essays*, I, ii, pp. 88, 95.
42. *Leibniz-Clarke Correspondence*, 16.
43. Leibniz, *Monadology*, Nos. 28-30; *New Essays*, Preface, p. 44.
44. *Leibniz-Clarke*, 16.
45. *New Essays*, I, ii, p. 94.
46. I, iii, p. 104.
47. II, i, p. 111.
48. II, i, p. 117.
49. Überweg, II, 107; Meyer, 152.
50. A. G. Langley in Leibniz, *New Essays*, p. 101n.
51. *Monadology*, No. 66.
52. Leibniz, *Système nouveau*, in Überweg, II, 109.
53. Walt Whitman.
54. *Monadology*, No. 9.
55. *Ibid.*, No. 11.
56. Nos. 18, 70.
57. Letter to Christian Wolff, in Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, p. 83.
58. *Monadology*, No. 63.
59. *Principles of Nature and Grace*, No. 4.
60. *Monadology*, No. 72.
61. *Ibid.*, No. 78.
62. No. 81.
63. Leibniz, *Explanation of the New System*, in Cassirer, 111.
64. Letter of Mar. 3, 1696, in *Philosophical Writings*, 115.
65. Introd. to the *Theodicy*, 47.
66. *Monadology*, No. 41; *Theodicy*, p. 74.
67. *New Essays*, Preface, p. 52; *Monadology*, No. 77.
68. *Theodicy*, p. 378.
69. *Ibid.*
70. *Monadology*, No. 69.
71. *Philosophical Writings*, 40.
72. *Theodicy*, 134.
73. *Ibid.*, 379.
74. *Principles of Nature and Grace*, No. 10.
75. Letter to Bayle, 1702, in Introd. to the *Theodicy*, 47.
76. Couturat, *Opuscules . . . de Leibniz*, p. 590, in Joseph, H. W., *Lectures on the Philosophy of Leibniz*, 44.
77. *Leibniz-Clarke Correspondence*, x, xiv.
78. Meyer, 97f.
79. *New Essays*, III, vi, p. 333.
80. Preface, 50.
81. Letter to Guhrauer in *Monadology*, 38.
82. Wolf, A., *History of Science . . . in the 16th and 17th Centuries*, 391; *History of Science . . . in the 18th Century*, 352.
83. Leibniz, *Protogaea*, in Locy, *Growth of Biology*, 256.
84. *Ibid.*
85. 257.
86. Meyer, 103.
87. Maverick, L. A., *China a Model for Europe*, 14.
88. Russell, B., *History of Western Philosophy*, 591; Newman, J. R., *World of Mathematics*, III, 1861.
89. Brewster, *Newton*, II, 215.
90. Hazard, 234.
91. Meyer, 164.
92. *Ibid.*, 126.
93. Saw, Ruth, *Leibniz*, 147.
94. Meyer, 152.
95. In Robinson, *Bayle*, 268.
96. Hazard, 303.
97. Spengler, I, 42.
98. *New Essays*, II, xvi, p. 534.
99. *Ibid.*, IV, xvi, p. 535.
100. Lecky, *Rationalism*, I, 148.

CHAPTER XXIV

1. Boulenger, *Seventeenth Century*, 242.
2. Cruttwell, *Mme. de Maintenon*, 189.
3. *Ibid.*, 186.
4. *Ibid.*, 195, quoting Lavallée, *Lettres édifiantes*, 149.
5. Saint-Simon, III, 12.
6. *Ibid.*, 13.
7. Acton, *Lectures*, 244.
8. Martin, H., *Louis XIV*, I, 552; Michelet, V, 127-28.
9. Saint-Simon, III, 12.
10. *Ibid.*, 11.
11. Macaulay, *History*, II, 475.
12. Martin, I, 535.
13. *Ibid.*, II, 64.
14. Michelet, V, 16.
15. Brunoist, *Coysevox*, 37.
16. Michelet, V, 6.
17. Boulenger, 239.
18. Martin, II, 65.

125. iii, appendix.
126. iii, 11, scholium; iv, 59.
127. iii, appendix.
128. Nietzsche, *Antichrist*, No. 2.
129. *Ethics*, iv, 45, scholium; iv, 50, 53-54.
130. iv, 42, 45, Scholium II.
131. iii, Definition III.
132. iii, Introd.
133. v, 3, corollary.
134. Müller, Johannes, *Physiologie des Menschen* (1840), II, 543-48.
135. *Ethics*, iii, 1, corollary.
136. iii, 59, scholium.
137. iv, 7.
138. iv, 51, scholium; 58, scholium.
139. iii, 59; Definition XXVII.
140. iv, 67.
141. iii, 12, scholium.
142. v, 21.
143. v, 34, scholium.
144. v, 29, scholium.
145. v, 23.
146. v, 31, scholium.
147. v, 3.
148. v, 6.
149. iv, 26.
150. ii, end.
151. iv, 68.
152. iv, 50, scholium.
153. iv, appendix, xiii.
154. iv, 73.
155. iv, 46.
156. iv, 48, scholium.
157. E.g., Bidney, *Psychology and Ethics of Spinoza*, 246.
158. *Ethics*, iv, 14.
159. *Ibid.*, iii, appendix, Definition VI.
160. *Improvement of the Intellect*, Introd.
161. *Ethics*, iv, 28.
162. *Tractatus Politicus*, i, 4.
163. *Ibid.*, ii, 8.
164. *Tractatus Theologico-Politicus*, Ch. xvi, p. 201; *Tractatus Politicus*, ii, 4.
165. *Ethics*, iv, 37, Scholium 1.
166. *Tractatus Politicus*, vi, 1.
167. *Ethics*, iv, 20, 22.
168. *Ibid.*, 35, scholium; 73.
169. *Tractatus Politicus*, i, 5.
170. *Tractatus Theologico-Politicus*, Ch. xx, p. 259.
171. *Tractatus Politicus*, vi, 4.
172. *Ibid.*, xi, 2.
173. *Tractatus Theologico-Politicus*, Ch. xxvii.
174. *Ibid.*
175. *Tract. Pol.*, xi, 4.
176. *Ibid.*, vii, 17.
177. *Ethics*, iv, appendix, 17.
178. *Tract. Pol.*, vi, 12.
179. In Bevan and Singer, *Legacy of Israel*, 451.
180. Wolfson, H., *Spinoza*, II, 233f.
181. Letter to Hugo Boxel, in *Correspondence*, 290.
182. *Jewish Encyclopedia*, XI, 517.
183. *Ethics*, iii, preface; v, preface.
184. *Tract. Pol.*, x, 1; v, 7.
185. Oldenburg to Spinoza, in *Correspondence*, Letter III.
186. Uberweg, *History of Philosophy*, II, 64-74.
187. Bayle, article "Spinoza."
188. *Jewish Enc.*, XI, 519.
189. *Ethics*, v, 36.
190. Garland, *Lessing*, 174.
191. Brandes, G., *Main Currents of 19th Century Literature*, I, 170; III, 257; IV, 75.
192. Robertson, *Freethought*, II, 168.
193. Hume, *Treatise on Human Nature*, Book I, Part iv, No. 5; Vol. I, pp. 228-29.
194. Froude, *Short Studies in Great Subjects*, I, 219-67.
195. Arnold, Matthew, "Spinoza," in *Essays in Criticism*.

CHAPTER XXIII

1. Dunning, *Political Theories from Luther to Montesquieu*, 321.
2. Robertson, *Freethought*, II, 296.
3. *Ibid.*, 298.
4. Leibniz, *New Essays on Human Understanding*, Introd., pp. 52 and 93; *Philosophical Writings*, 154, 166.
5. *Leibniz-Clarke Correspondence*, 192.
6. Meyer, *Leibniz and the 17th-Century Revolution*, 50.
7. Spengler, I, 42.
8. Mahan, A. T., *Influence of Sea Power in History*, 107.
9. Russell, Bertrand, *Critical Exposition of the Philosophy of Leibniz*, 6n.; *Camb. Mod. History*, V, 717.
10. *Ibid.*, 718; Meyer, 86.
11. Dampier, *History of Science*, 175; *Camb. Mod. History*, V, 717.
12. Wolf, A., in Spinoza, *Correspondence*, 47.
13. *Enc. Brit.*, XIII, 885c.
14. Jordan, G. J., *Reunion of the Churches: A Study of G. W. Leibnitz and His Great Attempt*, 42.
15. Meyer, 162.
16. Leibniz, *Theodicy*, 71.
17. Jordan, 36.
18. Robertson, *Freethought*, II, 300.
19. Piat, in Kayser, *Spinoza*, 206.
20. Russell, *Critical Exposition*, vii.
21. Meyer, 133.
22. *Ibid.*, 77.

14. Lucas, 722.
15. Wolf, A., in Spinoza, *Correspondence*, 49.
16. Kayser, 137.
17. Spinoza, *Correspondence*, 146, Letter XIX.
18. Spinoza, *Ethics*, Part IV, Prop. 45, Scholium II.
19. Waxman, *History of Jewish Literature*, II, 263.
20. Bayle, *Selections*, 305.
21. Spinoza, *On the Improvement of the Intellect*, Nos. 1-10.
22. *Ibid.*, Nos. 13 and 41.
23. No. 16.
24. Roth, Leon, *Spinoza*, p. 25.
25. Brunschvigg, L., *Spinoza et ses contemporains*, p. 138.
26. Spinoza, *Tractatus Theologico-Politicus*, Pref.
27. *Ibid.*, Ch. ix.
28. Ch. ii, p. 33.
29. Ch. i, p. 24.
30. Ch. vi, p. 92.
31. Ch. xiv, p. 186.
32. *Ibid.*, p. 189.
33. Ch. vii, p. 118.
34. Ch. xix, p. 245.
35. Preface, p. 5.
36. *Ibid.*, p. 8.
37. In Kayser, 202.
38. *Correspondence*, 348 (Letter LXXV).
39. *Tractatus*, Ch. i, p. 18.
40. Kayser, 247.
41. Meyer, R. W., *Leibniz and the 17th-Century Revolution*, 47.
42. *Ibid.*, 46.
43. Kayser, 168-69.
44. *Ibid.*, 231.
45. Bayle, *Selections*, 305-6.
46. Brunschvigg, 140.
47. *Ibid.*, 146.
48. Lucas, in Clark, 724.
49. Kayser, 249-51.
50. Putnam, *Censorship of the Church of Rome*, II, 255.
51. *Correspondence*, Letter XLVIII.
52. Lucas, 725.
53. Brunschvigg, 141.
54. Kayser, 262-65; *Enc. Brit.*, XXI, 234b.
55. Lucas, 725.
56. *Correspondence*, Letter I.
57. Bayle, *Selections*, 306.
58. *Ibid.*, 307.
59. Spinoza, *Ethics*, iv, 50, scholium.
60. *Correspondence*, Letter LXV.
61. Letter LXVII.
62. *Ibid.*
63. Letter LXXVI.
64. Letter LXXIX.
65. Letter VI.
66. Letter VII.
67. Letter LXVIII.
68. Kayser, 298.
69. Bayle, *Selections*, 308.
70. Letter IX.
71. *Ethics*, i, 8; Scholium II.
72. *Ibid.*, i; Definition IV.
73. ii, 13, scholium.
74. *On the Improvement of the Intellect*, Nos. 99-101.
75. *Ethics*, i, 15.
76. Letter LIV.
77. *Tractatus*, p. 65.
78. *Ethics*, v, 17.
79. *Ibid.*, i, 8; Scholium II.
80. Cf. Wolfson, H., *Philosophy of Spinoza*, II, 158.
81. Letter XXXII; *Ethics*, ii, 11, corollary.
82. *Ethics*, i, 17, note.
83. *Ibid.*, i, 31.
84. *Ibid.*, 18.
85. Letter LXXV.
86. *Ethics*, i, 32, Corollary I.
87. *Tractatus*, pp. 44, 92.
88. *Ethics*, i, appendix.
89. *Tractatus*, p. 202.
90. Letter LIV.
91. *Ethics*, i, appendix.
92. Letter LXXIII.
93. Including Wolfson, H., II, 348.
94. Letter XIX.
95. Letter XXX.
96. *Ethics*, v, 24.
97. ii, 13.
98. iii, 2, scholium.
99. *Ibid.*
100. ii, 12.
101. *Ibid.*
102. ii, 17-18.
103. ii, 26.
104. ii, 21.
105. ii, 48, scholium; Letter II.
106. *Ethics*, ii, 49.
107. iii, 2, scholium
108. ii, 49, corollary.
109. iii, Definition I.
110. ii, 48.
111. i, appendix.
112. Letter LVIII.
113. *Ethics*, i, appendix.
114. iii, 6-7.
115. i, 34.
116. i, appendix.
117. iv, Definition VIII.
118. v, 20, scholium.
119. iv, 20, 22, corollary.
120. iv, 18, scholium.
121. *Ibid.*
122. iii, 59.
123. iii, 9, scholium.
124. iv, Definition I

180. Berkeley, *New Theory of Vision*, No. 41.
181. Wolf, *Science . . . in the 18th Century*, 672.
182. Berkeley, *Principles of Human Knowledge*, No. 47.
183. *Ibid.*, Nos. 15-19.
184. 45-46.
185. 34-35; *Dialogues*, in *New Theory of Vision*, 274.
186. *Principles of Human Knowledge*, No. 90.
187. *Ibid.*, No. 57.
188. Chesterfield, Letter of Sept. 27, 1748.
189. Boswell, *Johnson*, 285.
190. Hume, D., *Enquiry concerning Human Understanding*, note to No. 122.
191. Berkeley, *Dialogues*, pp. 268-69.
192. *Ibid.*, p. 270.
193. Hume, *Enquiries*, No. 122, p. 155n.
194. *Camb. History of English Literature*, IX, 314.
195. Berkeley, *Principles of Human Knowledge*, No. 6.

CHAPTER XXI

1. Hazard, *Critical Years*, 330.
2. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 25.
3. Mousnier, *Histoire générale*, IV, 309.
4. *Récit de Marguerite Périer* (Pascal's niece), in Robertson, *Freethought*, II, 121n.
5. Day, *Ninon*, 211.
6. Smith, P., *Modern Culture*, I, 407.
7. In Vartanian, 57.
8. In Fellows and Torrey, *Age of the Enlightenment*, 23.
9. Malebranche, *Dialogues on Metaphysics*, in Robinson, D.S., *Anthology of Modern Philosophy*, 227-34.
10. Sévigné, Letter of August 4, 1680.
11. Faguet, *Dix-septième Siècle*, 77.
12. Robinson, H., *Bayle*, 46.
13. *Ibid.*, 19.
14. Bayle, *Pensées diverses sur la comète*, Ch. 100, in Fellows and Torrey, 69.
15. Ch. 25, in Robinson, *Bayle*, 91.
16. Ch. 141, in Fellows and Torrey, 73.
17. Ch. 172, *ibid.*, 75.
18. Luke xiv, 16-23.
19. Bayle, *Selections*, xiv.
20. In Robinson, *Bayle*, 83.
21. Hazard, 93.
22. Disraeli, *Curiosities*, II, 391-92.
23. In Robinson, *Bayle*, 236.
24. Disraeli, II, 393.
25. Bayle, *Selections*, 173 (article "Manichees.").
26. *Ibid.*, 8-25 (article "Adam") and 157-83, ("Manichees"); Robinson, *Bayle*, 208-212.
27. *Selections*, 208 (article "Pyrrho").
28. *Ibid.*, 209.
29. 210.
30. 204 (article "Abdas").
31. 205 ("Pyrrho").
32. Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 15.
33. *Selections*, 211 ("Pyrrho").
34. *Ibid.*, 214 ("Pyrrho") and 177 ("Manichees").
35. In Faguet, 18.
36. *Ibid.*, 10.
37. Havens, *Age of Ideas*, 35.
38. Hazard, 444.
39. Havens, 37.
40. *Selections*, Introd., xx.
41. Robinson, H., *Bayle*, 274.
42. *Selections*, Introd., xxx.
43. Faguet, 6.
44. *Selections*, Introd., xxvii.
45. Faguet, 6.
46. Robinson, *Bayle*, 294.
47. Noyes, A., *Voltaire*, 470.
48. Faguet, 54.
49. In Fellows and Torrey, 62.
50. Fontenelle, *Origine des fables.*
51. Fellows and Torrey, 43.
52. *Ibid.*, 60.
53. *Ibid.*, 44-46.
54. Flint, *History of the Philosophy of History*, 215.
55. In Lanfrey, *Historie politique des papes*, II, 138.
56. In Bell, *Men of Mathematics*, p. xix.
57. Bury, J.B., *The Idea of Progress*, 108.
58. Desnoiresterres, III, 239.
59. In Faguet, 21.
60. Havens, 60.
61. Aldis, *Mme. Geoffrin*, 25.
62. *Ibid.*, 30; Havens, 62.

CHAPTER XXII

1. Kayser, *Spinoza*, 41.
2. Maimonides, *Guide to the Perplexed*, I, Introd.; II, Props. 37-46; III, Props. 22, 30, etc.
3. *Ibid.*, II, pp. 17f.
4. II, Prop. 2, Introd.; Zeitlin, Maimonides, 151.
5. *Jewish Encyclopedia*, VIII, 29.
6. Martin, H., *Louis XIV*, I, 403.
7. Lucas, *Life of Spinoza*, in Clark, *Great Short Biographies*, 718.
8. *Ibid.*, 719.
9. 720.
10. Graetz, *History of the Jews*, V, 93.
11. *Ibid.*
12. Lucas, 720.
13. Graetz, V, 94.

84. *Ibid.*, 152.
85. In Robertson, *Freethought*, II, 55.
86. Collins, Anthony, *Discourse of Freethinking*, 5.
87. *Ibid.*, 88-89.
88. *Ibid.*, 105.
89. Robertson, II, 153.
90. Willey, *Seventeenth-Century Background*, 87.
91. *Leibniz-Clarke Correspondence*, p. xi.
92. In Stephen, *Eighteenth-Century-Thought*, II, 210.
93. *Camb. Mod. History*, V, 750.
94. More, Henry, *Philosophical Poems*, in Willey, *Seventeenth Century*, 140.
95. In Willey, 161.
96. Disraeli, I., *Curiosities of Literature*, I, 210.
97. *Camb. Mod. History*, V, 751.
98. Cassirer, *Platonic Renaissance in England*, 62-64.
99. In Willey, 175.
100. *Ibid.*, 179.
101. *Ibid.*, 182, 193.
102. Glanvill, *Vanity of Dogmatizing*, in Mumford, *Technics and Civilization*, 58.
103. Glanvill, *Sadducismus Triumphatus*, in Willey, 195.
104. Fox-Bourne, *Locke*, I, 13.
105. Aaron, *Locke*, 6.
106. *Ibid.*
107. Fox-Bourne, I, 198.
108. Locke, *Two Treatises on Government*, Introd. xxxiii.
109. Macaulay, *History*, I, 417.
110. Aaron, 23.
111. *Enc. Brit.*, XIV, 271d.
112. Aaron, 24.
113. Locke, *Two Treatises*, 3.
114. Filmer. *Patriarcha*, in Locke, *Two Treatises*, 255f.
115. Filmer, *Observations upon Aristotle's Politics*, in Hearnshaw, *Thinkers of the Augustan Age*, 37.
116. *Ibid.*, 39.
117. Filmer, *Patriarcha, loc. cit.*, 278.
118. Locke, *Two Treatises*, 3.
119. *Second Treatise*, No. 119.
120. No. 85.
121. No. 94.
122. No. 40.
123. No. 36.
124. No. 138
125. Pollock, *Introd. to the History of the Science of Politics*, 65.
126. Locke, *Second Treatise*, Nos. 228-29.
127. Locke, *Essay concerning Human Understanding*, Epistle to the Reader, p. xx.
128. Lamprecht, S.P., in Dewey, *Studies in the History of Ideas*, III, 217.
129. Locke, *Essay*, II, xii, 17.
130. *Ibid.*, Epistle to the Reader, p. xx.
131. *Essay*, III. x, 5-14.
132. *Ibid.*, II, xiii, 27.
133. II, xxi, 6.
134. III, vi, 12, 37.
135. I, ii, 7.
136. II, xxxiii, 6.
137. I, iv, 8-9.
138. I, iii, 27.
139. II, i, 2.
140. II, ix, 1.
141. II, xxiii, 1-4.
142. *Ibid.*, 5.
143. 14-15.
144. II, xxi, 47-48, 52-53.
145. IV, iii, 6.
146. II, xxvii, 26.
147. Sterne, L., *Tristram Shandy*, 62.
148. Voltaire, *Letters on the English*, in *Works*, XIXb, 36.
149. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 379.
150. Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 99.
151. Locke, *Essay*, IV, xviii, 2.
152. *Ibid.*, 10.
153. 5.
154. 6.
155. 10.
156. IV, xix, 1.
157. *Ibid.*, 14.
158. Locke, *Reasonableness of Christianity*, in Willey, 285.
159. *Essay*, IV, x, 12.
160. Aaron, *Locke*, 298.
161. *Ibid.*, 21.
162. Spengler, O., *Decline of the West*, II, 308.
163. Shaftesbury, *Characteristics*, I, xxii.
164. *Ibid.*, I, p. xii.
165. P. 237.
166. 263.
167. 267-70.
168. 45.
169. 239-46.
170. I, p. xxvii.
171. II, 150.
172. I, 79.
173. 75.
174. Sidgwick, *History of Ethics*, 186-87.
175. Shaftesbury, I, 260.
176. *Ibid.*, I, 86.
177. Cassirer, *Platonic Renaissance in England*, 199.
178. Berkeley, George, *Principles of Human Knowledge*, No. 92, in *New Theory of Vision*, p. 159.
179. Locke, *Essay*, II, ix, 8.

NOTES

المراجع

CHAPTER XX

1. Aubrey, 157
2. *Ibid.*, 150.
3. *Ibid.*, 151.
4. Hobbes, *Leviathan*, Ch. iv, p. 16.
5. Hobbes, *De Corpore*, i, 2, in *The Metaphysical System of Thomas Hobbes*, ed Mary W. Calkins, p. 6.
6. *Leviathan*, vii, p. 31.
7. *Ibid.*, i, p. 3.
8. *Ibid.*
9. *Elementorum Philosophiae*, in *Metaphysical System*, p. 119.
10. *Leviathan*, ii, pp. 4-5.
11. *Ibid.*, iii, p. 8.
12. Hobbes, *Elements of Law*, i, 3.
13. *Leviathan*, ii, p. 6.
14. *Ibid.*, vi, p. 28.
15. *Elements of Law*, i, 12.
16. *Leviathan*, xxi, p. 111.
17. *Ibid.*, vi, p. 23.
18. *Elements of Law*, i, 11.
19. *Leviathan*, xi, p. 50.
20. *Ibid.*, 49.
21. vi, p. 27.
22. Pp. 23-26.
23. viii, p. 35.
24. xi, p. 49.
25. *Elements of Law*, i, 12.
26. *Leviathan*, xiii, p. 65.
27. *Ibid.*
28. P. 64.
29. *Ibid.*
30. P 65.
31. xvii, p. 89.
32. P. 90.
33. xxi, pp. 114-16.
34. xxix, p. 173.
35. P. 176.
36. xix, pp 99, 101.
37. *Elements of Law*, ii, 2.
38. *Leviathan*, xviii, p. 93; xxix, p. 174.
39. P. 172.
40. vi, p. 26; xi, p. 54.
41. xii, pp. 54-55.
42. *Ibid.*
43. xii, p 56.
44. Hobbes, *De Homine*, Ch. i.
45. *Leviathan*, xi, p. 53.
46. xxxi, p. 194.
47. xxxiv, p. 211.
48. Stephen, *Hobbes*, 151-52.
49. *Leviathan*, xii, p. 59.
50. xxix, p. 175.
51. Hobbes, *De Cive*, in Stephen, *Hobbes*, 222.
52. *Leviathan*, xxxi, p. 196.
53. xxxii, p. 199.
54. Bayle, *Selections*, article "Hobbes."
55. Burnet, *History of His Own Time*, 45.
56. Aubrey, 152.
57. Bowle, *Hobbes and His Critics*, 152.
58. *Ibid.*, 34.
59. *Enc. Brit.*, XI, 613b.
60. Aubrey, 156.
61. *Ibid.*, 153.
62. *Enc. Brit.*, XI, 613d.
63. Aubrey, 153-55.
64. Brewster, *Newton*, II, 149n; Stephen, *Hobbes*, 68.
65. Bayle, article "Hobbes," *loc. cit.*
66. Aubrey, 124.
67. Harrington, *Oceana*, 186.
68. *Ibid.*, 186.
69. 187.
70. 197.
71. *Camb. Mod. History*, VI, 796.
72. Aubrey, 125.
73. Stephen, L., *History of English Thought in the 18th Century*, II, 80.
74. Robertson, J. M., *Freethought*, II, 87; Psalms xiv, l, liii, l.
75. Robertson, II, 90.
76. *Ibid.*, 91.
77. *Ibid.*, 95; Smith, P., *Modern Culture*, II, 482.
78. Toland, John, *Christianity Not Mysterious*, 6, 37.
79. Lange, F. E., *History of Materialism*, I, 328-29.
80. *Ibid.*, 325; Wolf, *History of Science . . . in the 18th Century*, 792.
81. *Ibid.*; *Enc. Brit.*, XXII, 270b.
82. Lange, I, 325.
83. Hazard, *Critical Years*, 264.